بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

صورة الغرب في شعر أبي الفضل الوليد

Image of The West in The Poetry of Abi-Al-Fadi Al-Walid

أطروحة ماجستير

إعداد الطالب:

احمد هلال محمد بني عيسى

إشراف:

الاستاذ الدكتور زياد الزعبي

حقل التخصص: الأدب المقارن.

الفصل الدراسي الاول

٢٠٠٨/٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغرب في الشعر أبي الفضل الوليد

إعداد

أحمد هلال محمد بني عيسى

قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
تخصص الأدب والنقد في جامعة اليرموك

لجنه المناقشة

ا.د زياد الزعبي ....مشرفا ورئيسا
جامعة اليرموك
د.محمد محمود الخز علي ....عضوا
جامعة اليرموك
د.خلف خازر الخريشة ....عضوا
جامعة اليرموك
دمحمد احمد القضاة ....عضوا
الجامعة الاردنية

إهداء

إلى من أوصلاني إلى ضفاف النجاح إلى والديّ.

إلى رفاق الدرب وكنز الأيام إلى إخواني.

إلى شقيق الروح إلى القريب البعيد صهيب.

إلى شعاع الأمل في دربي ونبض الصداقة في أيامي سجود.

إلى صحبه جميله أشرقت شمسا في ظلمه الأيام .

وإلى كل من ساهم في إنجاح هذا العمل .....مع خالص المحبة والاحترام.

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغرب في شعر أبي الفضل الوليد

. تناولت في رسالتي التي تحمل عنوان " صورة الغرب في شعر أبي الفضل الوليد " نماذج من شعره وشعر أقرانه من شعراء عصره .

وقد تكونت رسالتي من فصول ثلاثة ومقدمة ذكرت فيها أهداف الدراسة وأهميتها والدراسات السابقة في هذا المجال .

حيث مهدت لرسالتي لعرض تفصيلي عن حياة أبي الفضل الوليد منذ ولادته مرورا بمراحل تعلمه وثقافته و الآثار الأدبية التي تركها .

وجاء الفصل الأول " الاستعمار و أثره في الشعر العربي المعاصر " عرض لدوافع الاستعمار وتأثير الشعراء العرب الذين عاصروا أبا الفضل الوليد من خلال نماذج شعرية لهم .

أمّا الفصل الثاني : " موقف أبي الفضل الوليد من الغرب " تناولت فيه فكر الشاعر وموقفه من الغرب من خلال أشعاره . وقد تضمن هذا الفصل محاور ثلاثة : علاقة الشرق بالغرب , ونظرة الغرب إلى أنفسهم , ثم ردة فعل الشرق على الغرب .

و أخيرا جاء في الفصل الثالث السمات الفنية في شعر أبي الفضل الوليد و أهم السمات الفنية التي امتاز بها شعره, المطولات , و التكرار , وعناصر الحركة و اللون , والصورة الفنية .

وقد تم إدراج أهم المصادر والمراجع التي استعنت بها في رسالتي شاكرا الأستاذ الدكتور زياد الزعبي الذي لم يأل جهدا في تقديم العون والإرشاد في كل مرحلة من مراحل إعداد هذه الرسالة والشكر موصول لأعضاء اللجنة على جهودهم وإرشاداتهم المثمرة .

والله ولي التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ظهرت صورة الغرب في الشعر العربي من خلال ما قدم الشعراء من آراء بالمستعمر الذي دخل البلاد العربية وعاث فيها فسادا محاولا طمس حضارتها ومحي ثقافتها. وكان ذلك بعد أن خرجت البلاد العربية من ظلم الدولة العثمانية التي أرهقتهم وذلك بما فرضته عليهم من ضرائب ناهضة ومحاولة إحلال اللغة التركية محل اللغة العربية كي تصبح اللغة الرسمية في البلاد العربية, حيث كان هذا الشعر الذي سطره الشعراء ينبض بالرفض والتألم من ذلك الظلم الواقع وقد حاول الشعراء استنهاض أنفسهم وتذكير إخوانهم العرب بأمجادهم السالفة , فيما أصبحوا الآن يرزحون تحت ذلّ المستعمر وقهره وتجبره . كما حاولوا تفنيد ادعاء المستعمر الذي حاول إقناع العرب بأنه جاء بقصد الإصلاح والتحضر..

تنبثق أهمية هذه الدراسة من كونها تتناول فكر شاعر هو أبو الفضل الوليد الذي امتاز شعره بمعارضة الغرب ومقاومته ، فقد صوره إنه عدو يقصد هدم البلاد وتخريبها , فوقف شعره على تصوير الغرب ووحشيته أو أطماعه في الاستيلاء على البلاد العربية أو سلب خيراتها أو طمس هويتها الوطنية والدينية ,

وكان أبو الفضل الوليد من أكثر الشعراء تركيزًا على الغرب وتعنته.

إن الدراسات التي تناولت الشعراء المهجريين كثيرة, إلا أنها لم توجه اهتمامها إلى أبي الفضل الوليد فليس هناك سوى بعض الدراسات المتحدثة عنه ومنها :

أولاً : عرض مارون عبود للحديث عن أبي الفضل في كتابه جدد وقدماء.

ثانيًا : أطروحة دكتوراه تحت عنوان (أبو الفضل الوليد حياته وأدبه)، مقدمة من (محمد ذيب سلامة النطافي) .

ثالثا : الشاعر المضيّع أبو الفضل الوليد ، كتاب لوليد مشوح .

رابعا : مقال زياد الزعبي تحت عنوان (الشرق والغرب واللقاء المستحيل) ، دراسة في صحائف أبي الفضل الوليد .

تناول مارون عبود في كتابه " جدد وقدماء " في فصل مستقل أبا الفضل الوليد ولادته و ثقافته , وتعليمه ونشأته ونسبه , ومن ثم هجرته و مؤلفاته الأدبية .

أما أطروحة الدكتوراه التي قدمها محمد سلامة ذيب النطافي فتُعد من الدراسات التي استقلت في دراسة أبي الفضل الوليد بوصفه شاعرا لم يَذع صداه في الدراسات التي تناولت شعراء المهجر، فكانت هذه الرسالة خمسة أبواب هي :

الباب الأول: حياة أبي الفضل الوليد.

الباب الثاني: ثقافة أبي الفضل الوليد ورسالته.

الباب الثالث: شعر أبي الفضل الوليد.

الباب الرابع : نثر أبي الفضل الوليد .

الباب الخامس: أدب أبي الفضل في الميزان.

أما عن صورة الغرب في شعر أبي الفضل , وهو عنوان هذه الرسالة. فقد لاحظ الباحث أن النطافي لم يُفرد لهذا الموضوع جزءًا مستقلا في دراسته, ولكن ظهر الحديث عن هذا من خلال أبيات أوردها الباحث، تعكس رأي أبي الفضل، وتبين موقفه من الاستعمار وحركات التحرر.

وفي محاولة الباحث النطافي إبراز قومية أبي الفضل وعروبته، تحدث في فصلٍ عن ثقافة أبي الفضل الوليد وأثرها في الشعر, إذ إن شاعرا كأبي الفضل ، عُرف بعروبته المتدفقة، لا بد أن يكون مناقضًا للاستعمار بمواقفه، رافعا راية العروبة؛ وهذا ما أورده الكاتب النطافي.

أما هذه الرسالة فقد أفردتها لقراءة موقف أبي الفضل الوليد من الغرب و أتبعت فيها النصوص الشعرية التي تحدث فيها عن الغرب ممثلا على نحو خاص بالاستعمار الفرنسي والانجليزي , وهذا الموضوع يحتل جزا واسعا من شعره بعضه يتناول فيه الصور الوحشية للغرب وبعضه يقف فيه على ما يجب على الأمتين أن يفعلوه تفاديا لهذا الخطر , من خلال محاور ثلاثة :

أولا: نظرة الغرب إلى أنفسهم .

ثانيا: علاقة الغرب بالشرق .

ثالثا: ردة فعل العرب على الاستعمار الغربي .

ويتم عرض هذا الموضوع على ضوء كتاب "القضيتين " الصحائف التي عبر فيها أبو الفضل عن رأيه بالغرب , وبالاستعانة بديوان أبي الفضل .

منهج البحث

وبناءً على ما يحويه شعر أبي الفضل الوليد من عناصرَ وأفكار قومية , تكون دراستي على أساس تحليل النصوص وتفسيرها ، لإبراز تلك الأفكار ــ كما رسمها الشاعر في أشعاره وصوره ــ ولمحاولة ربط القصائد بالواقع السياسي الذي يسود في عصر الشاعر في بلاده الأم

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وفصول ثلاثة وخاتمة، مقسمة كالآتي:

المقدمة

التمهيد

وفي التمهيد حديث عن أبي الفضل الوليد؛ حياته ، وبيئته وثقافته ومؤلفاته الشعرية والنثرية .

الفصل الأول

وفيه حديث عن أثر الاستعمار في الشعر العربي المعاصر ، إذ سيتم إدراج مجموعة من النماذج الشعرية لعدد من الشعراء الذين عاصروا أبا الفضل الوليد في الوطن العربي ، وكذلك يتناول الفصل عرض لمواقف الشعراء من الاستعمار الذي يحمل تضاربًا بين مادح لبطولات العرب القدماء ، ومستنهض لهممهم ودفعهم لتحرير أرضهم من كيد الغربي ، وبين صيحة اليأس والقنوط بما آلت إليه أوضاع العرب في ذل وخنوع .

الفصل الثاني

تتحدث عن موقف أبي الفضل الوليد من الغرب وتتضمن آراء ثلاثة لأبي الفضل الوليد من الغرب من خلال قصائد له :

١ – صورة الغرب ونظرتهم لأنفسهم .

٢ – علاقة الغرب بالشرق .

٣ – ردة الفعل العربية على استعمار الغرب السافر .

وسيكون المنطلق في هذه الدراسة تلك النصوص التي حفل بها ديوان أبي الفضل الوليد وعبّر عنها.

الفصل الثالث

وفي هذا الفصل دراسة للسمات الفنية في شعر أبي الفضل، كأسلوب المطولات، والتكرار، والتناقض، واللفظ والمعنى، وغيرها من الخصائص، سيرد ذكرها خلال الدراسة.

الخاتمة

وفي الخاتمة عرض لفحوى هذه الرسالة وما آلت إليه من نتائج .

قائمة المصادر والمراجع

وتشتمل على أهم المؤلفات والكتب التي وظّفت في إخراج هذه الدراسة.

وفي هذا المقام لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى الأستاذ الدكتور زياد الزعبي الذي كان مثال العالم المعطاء والأب الحاني.

وكل الشكر إلى أعضاء اللجنة المناقشة لهذه الرسالة الدكتور محمد محمود الخزعلي، والدكتور خلف خازر الخريشه، والدكتور محمد أحمد القضاة .

التمهيد

إلياس بن عبد الله بن فرج بن طعمة ، ولد في أوائل آب من سنة ١٨٨٩في قرية قرنة الحمراء من قاطع المتن في لبنان دخل مدرسة القرية في السادسة من عمره ، نال إعجاب معلمه لذهنه وفهمه وذاكرته وفطنته حتى ضُرب فيه المثل بنجاحه ، وفي مدة سنتين تمكن من العربية وألم بالفرنسية ، وبدأ ميله إلى الشعر بنظمه بعض الأبيات وقراءتها على مسامع زملاء الدراسة، أرسله والده إلى مدرسة عين طوره في العام ١٨٩٩ فتخرج منها بعد ثلاثة أعوام .

وفي السنة الأخيرة من دراسته في عين طورة ، ظهرت مقدرته على الإنشاء، فكان معلمه ومديره معجبيْن بهذا النضج الخارق والباكر، وفي تلك السنوات نظم قصائد بالعربية والفرنسية، وفي سنّ رشده بدأ نزوعه إلى الحرية والحمية؛ فشكا منه معلموه[1].

وفي عام ١٩٠٣ التحق إلياس طعمة (أبو الفضل الوليد) بمعهد الحكمة وهو في الرابعة عشرة من عمره ، واجتهد بدراسة العربية والنهل منها ، إذ إن معهد الحكمة يُعنى باللغة العربية على العكس من مدرسة عين طورة التي كانت غربية النزعة ، وذات اهتمام في اللغة الغربية ، لقد كان يقدس ألفاظ العربية وينتشي بأبياتها ويهتدي إلى مواطن الجمال فيها ببراعة المغني ومهارة الخبير الذّواقة [2] .

عاد أبو الفضل إلى قرنة الحمراء في عام ١٩٠٥ وقد اكتملت عدته وتألقت شخصيته تتجلى فيه حكمة الشيوخ الذين عركهم الزمان مع أنّه لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر، أراد أبوه أن يعلمه الفقه أو الطب، وعرض عليه منصبًا في الحكومة فرفض الأمرين، وذهب إلى دراسة الأدب ، وعكف في قرية عين طورة ثلاث سنوات يطالع ويتأمل ويؤلف يتمتع بجمال

---

(1) أبو الفضل الوليد الشاعر المضيع ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .
(2) ديوان أبو الفضل الوليد ، ص ٢١ .

الطبيعة حوله، مما أنتج بعد ذالك إبداعًا نثريًا وشعريًا . وكذلك عمل في هذه السنوات الثلاثة على تعريب بعض الروايات المقتبسة من تاريخ العرب وهي (أسرار بغداد)، و(نكبة البرامكة) و(أحمد وولادة) وترجم قصيدة (البحيرة) للامرتين و(الليالي) لأفرد وموسيه . ونظم أيضًا بعض القصائد الشعرية مثل (نشيد الأناشيد) للنبي سليمان وصدره بمقدمة بديعة (1) .

يقول مارون عبود : إن أبا الفضل قد أحسّ بأنه سيهمل ، وينسى ، فدّن قلمه نفوسه ، وقال : إنّه طويل القامة ، قوي البنية ، متناسب الأعضاء ، حنطي اللون ، كبير الرأس ، كثيف الشعر ، واسع الجبهة ، أزج الحاجبين ، أنجل العينين ، عسليّ الحدقتين ، ضخم الأنف ، غليظ الفم ، عريض الذقن والصدر ، طلق المحيّا حسن المقابلة ، لين الجانب ، حلو الحديث ، لطيف الحسّ ، شديد الطرب صبور جلد ، محب للحلم والرحمة ، والإحسان ، ذو أنفة وعفّة ، ونزاهة ، وشهامة ، متروّع في العزلة ، متواضع في العشرة ، حافظ للعهد ، وفيّ بالوعد ، غضوب للحق ولوع بالعدل "(2).

لم يسد هذا النجاح الذي لقيه أبو الفضل الوليد في المحافل الأدبية والاجتماعية مساحات الطموح التي يحلم بها ، فلقد ظل يبحث عن المعالي ويحرك الطموح همته ، لتبدأ رحلته عبر بيروت في أواسط نيسان عام ١٩٠٨م فمرّ بمصر ثم إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال.

وكان للأندلس الأثر الكبير في نفس أبي الفضل الوليد وفي شعره ، وثارت مشاعر الانتماء للعروبة والوطن ونزل عام ١٩٠٨ في الأرجنتين ، ولكنها لم تحقق له الطموح الفيّاض وعرج إلى الأرجواي ، وانتقل إلى البرازيل واستقر في عاصمتها رويدي جانيرو اثنتي عشرة سنة.

---

(1) المصدر السابق نفسه ص ٦٩ .
(2) مارون عبّود ، جدد وقدماء ، ص ٢٤٦ .

نزل في البرازيل وقام بجولات واسعة في ولاياتها الداخلية والخارجية . وفي سنة ١٩١٤ عزم على العودة للوطن ، حال دون ذالك اندلاع الحرب العالمية الأولى . بدأ عام ١٩١١ ينشر مقالات له وقصائد في صحف البرازيل فاتسعت شهرته ، وكان سبب هذه الشهرة الحس الأدبي الوطني الصادق وآرائه السديدة لمعالجة القضايا السياسية . وفي سنة ١٩١٣ أسس جريدة أسماها (الحمراء) تأسّيا باسم قريته قرية الحمراء وحمراء الأندلس ، وقد ذاع صيتها وتهافت عليها المغتربون برسائل الثناء . وظل يصدر جريدته حتى عام ١٩١٧ ، وقد اعتبر زعيم العرب في المغتربات الأمريكية.

وفي تشرين الأول عام ١٩١٦ اتخذ اسم (الوليد) وكنيته (أبو الفضل) ودونها في السجلات الرسمية في البرازيل ، فأصبح يعرف بهما ، ويعلل تغير اسمه بأنه اسم مبتذل وأصبح الناس يعرفون به النبي اليهودي ، متناسين أن عربيًا كبيرًا قد حمله ؛ وهو اليأس بن مضر بن نزار (١) .

وكذلك غير اسمه لكي تكتمل حلقة الإسلام بتغيير اسمه إلى اسم عربي يناسب الإسلام . وبين سنتي ١٩١٥ ــ ١٩٢١ طبع الوليد قسما كبيرًا من مؤلفاته شعرا ونثرا. وفي نيسان ١٩٢٢ ركب البحر عائدا إلى الوطن ، فمر بالجزائر وتونس ، ثم عبر إلى لبنان مكث فيها مدة سنتين ثم سافر عام ١٩٢٤م إلى القاهرة ، ومنها إلى القاهرة عام ١٩٢٥ مرة أخرى ثم إلى عمان، فقابل الأمير عبد الله بن الحسين وأوفد معه الأمير طلال إلى العقبة ، ولقي إكراما وترحيبا كبيرين عرضوا عليه البقاء بعمان لخدمة الدولة العربية الناشئة ، لكن البلاد كانت تعاني من الاضطراب والعنف فعاد أبو الفضل إلى عمان وغادر منها إلى دمشق مارا بحوران ، ثم شد الرحال إلى بغداد عام ١٩٢٥ ، وبقي حتى عام ١٩٢٦ ثم عاد إلى قرنة الحمراء وطبع رواية

(1) الديوان ، جورج مصروعة ، ص ٦٦ ــ ٦٨ .

(زوال الحب والملك) في بيروت ثم رواية (أحاديث المجد والوجد) عام ١٩٢٩ وديوان "رياحين الأرواح " عام١٩٣١ ومنضمة "غافر ولبانه" والسباعيات([1]).

وسنة ١٩٢٩ انتدب لتمثيل لبنان في مؤتمر الشرقي ضد الاستعمار ، الذي عُقد في برلين وقد أنجز مهمته وخدم العروبة على أكمل وجه ، إذ كان هدفه خدمة الأمة العربية وبالأخص الأمة السورية .

سُمي أبو الفضل شاعر الحمراء لعدة أسباب :

١ – أنه ولد في قرنة الحمراء .

٢ – أنه أنشأ جريدته الحمراء .

٣ – أنه غنّى الحمراء في الأندلس .

٤ – أنه أهرق الدماء على قصائده فهو الذي كتب عهودا من دمه ومداده ([2]).

"وفاته"

ظل الوليد معتكفا منصرفا غالى التأمل والتفكير ، وقد حف بمحبة أهله ومن حوله حتى وافاه الأجل في نيسان ١٩٤١ . ختم حياته بقوله ([3]) :

على عمرانها الدنيا خراب	**ومع قمريها ينعى الغراب**
فدعاها غير مأسوف عليها	**فأولها وآخرها تـــــــراب**

(1) ديوان أبي الفضل الوليد ، جورج مصروعة ، ص ٦٩ .
(2) أبو الفضل شاعر الحمراء ، جورج غريب ، ص ١١ .
(3) الديوان ، ص ٧٠

عصره وبيئته "

نشأ أبو الفضل في ظل الدولة العثمانية، ضمن سلالة عائلة كريمة المتحد، شريفة النسب، إذ كان والده عبد الله بن إلياس بن فرح بن طعمة، من هواة العلم الباذلين المال للتعليم، مهتما بتعليم ابنه وإكسابه العلم؛ فقد بعثه -كما أوردنا- إلى مدرسة الحكمة يتعلم اللغة العربية.

أمّه مرشه بنت خليل بن فارس بن طوبيا من بيت شتات، وجدها يوسف الشنتيري، أحد أبطال لبنان وثواره المشهورين، كان لجديه من المال والصيت والوجاهة النصيب الأكبر فهو سليل ثلاثة بيوت عريقة في الجاه والغنى والكرم (1).

إن الحالة السياسية التي مارستها الدولة العثمانية على رعاياها ، والتي جعلتهم يرزحون تحت وطأة الانحطاط مدة غير قصيرة من الزمن ، بالإضافة إلى التعاون الأجنبي الذي وضع الشعب اللبناني في بوتقة الظلم والاستبداد ؛ لاشك أنها تركت الأثر الكبير في اتجاهاته وتحديد مفهوماته ، فهو الذي عانى كغيره من الظلم التركي وإقطاعية الإكليدوس ودسائس المستعمرين، ولكنه لم يذلّ أمام الأحداث . وقد أنتجت تلك الظروف الروح الوطنية الحقة، كان ينظر إلى وطنه لبنان الذي أنهكته الحروب ، وقد كانت كتابات قلمه من وحي هذه الظروف ومن وحي روح العروبة الثائرة (٢).

وبالإضافة إلى الحالة الاقتصادية التي ارتبطت شديد الارتباط بالحالة السياسية ، فإن تدهور الأحوال السياسية لا بد سيعرج على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، فيما فُرض على الناس من الضرائب تحت مسميات (الخاوات) ، والتي كانوا يجمعونها عن طريق النهب .

(1) أبو الفضل الشاعر المضيع ، ص ١٥٩ .
(2) النطافي ، ص ١٥ .

وفي ظل هذه الظروف كانت الهجرة والسفر منجاة وحدثا عظيمين. وقد تأثر أبو الفضل بهذه الظروف كغيره من أبناء ذلك الشعب المغلوب على أمره .

وقد كان أهل الشام يعيشون في جو استبدادي قهري ، فانتشرت بينهم عادات سيئة مثل الكذب النفاق والخداع والتذلل . ولعل أهم ما أصاب أهل الشام جراء الحكم العثماني هو الانكماش الفكري ، وتلك العزلة العقلية التي أبعدت بلاد الشام عن مسارب الثقافة ، إذ وقع بعدها في سبات أخّره عن الركب الحضاري .

ورغم أن اتصال لبنان بأوروبا قديمًا ، إلا أن التغييرات الجذرية في حياة ذلك الشعب لم تتم إلا في القرن التاسع عشر ، وقد أصبح لبنان رائد الجمع بين الحضارتين : الشرقية والغربية ، ومنفذا لها إلى الدول المجاورة ، إذ كان نقطة احتكاك مع الدول الغربية وثقافتها . أما عن كيفية تسرب هذه الثقافات إلى العرب ، فقد كانت عن طريق مصادر عدة :

- الصحافة
- الإرساليات
- التعليم
- المطبعات
- الجمعيات الوطنيّة والأدبية وعمل الأدباء على إنعاش روح الأدب والاهتمام بها للوصول إلى نهضته .

وكذلك عن طريق أبو الفضل الوليد، الذي تتلمذ لهذا العصر، وعاش هذا الفترة المتفتحة ثقافيا والمزدهرة فكريا ، وقد تأثرت بها نفسه فطعم أدبه بها فقد رسم في شعره صورا واضحة لتلك الفترة ورمزا لتلك اليقظة الثقافية .

حافظ أبو الفضل على الأصالة العربية ، ودعا إلى المحافظة على اللغة وقال : وكيف نستعمل لغة رديئة مشوهة لا روابط لها ولا ضوابط، إن في الكلام وإن في الكتابة ، بها يخشن النطق ويسفل التعبير وينحصر الفكر في دائرة ضيقة ، فيصبح الأدب قليل الرواج والنتاج ، وتنقطع الصلات بين الماضي والآتي ، وكذلك بين أهل الأقطار العربيّة([1]).

وكان لأبي موقف أدبي الفصل دعا فيه إلى المحافظة على القالب الشعري والتجديد في المعاني ، إذ إن الشعر العربي يحتاج إلى تجديد المعاني لا المباني ، وإن الشاعر المطبوع يرى أن مجال الشعر فسيح ، فلا يرتبك في الوزن والقافية ، بل ينال ما يريده وادعا مطمئنا ، فالقافية في قصيدته تجري مواضعها من تلقاء نفسها ، ومن المعنى يعرف اللبيب القافية قبل الوصول إليها ، فلو شاء أن يبدلها من أخرى ما استطاع لشدة رسوخها .

أما هدف الأديب الشاعر في الحياة فقد عبّر عنه بقوله " لولا بياض أمله لما شهد الملأ سواد ورقة ، ولولا حبه لقومه ووطنه ما أضاع في الكتابة أحسن العمر ، فليس هو إلا صاحب دعوة ، له عقيدة مليّة وطريقة سياسية ، حمل العلم لأطفارها فكتب للعب والسل ، فكان نثره ونظمه مبديين لشعوره وإيمانه ورجائه([2]) .

ثقافة أبي الفضل

كانت ثقافة أبي الفضل الوليد حصيلة مجموعة من المؤثرات المتعلقة بأبي الفضل الوليد إذ تأثرت بتعلمه ، وكذلك كان لبيئته أثر كبير في قصائده، إذ لبث ثلاث سنوات من أطيب

([1]) النطافي ، ص ٣٤ .

(2) مارون عبود ، جدد وقدماء ، ص ٢٤٦ .

العمر قضى بها يتمتع بجمال الطبيعة ، وتأمل ألوانها وسحرها، وقد عكف على تعريب بعض النصوص من اللغات المختلفة([1]).

أما عن مصادر هذه الثقافة التي تحلى بها أبو الفضل الوليد، فقد اطلع على الشعر العربي وتأثر بنماذج الشعر والشعراء العرب، إذ تأثر بالشكل الخارجي للقصيدة العربية من جانب وفي المعنى والصورة من جانب آخر، وبموضوعات الشعر المتعددة، مثال ذلك تأثره بأبي فراس الحمداني بقوله:

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي   وما أنا مداح وما أنا شاعر

وقد تأثر أبو الفضل الوليد في قوله:

على خفقات القلب ينضم شعره   فما هو وزان ولا هو نحال([2])

وفي قصائده المطولة ظهرت ثقافته الأدبية والتفاتاته إلى روائع الشعر العربي القديم، ومن تلك المطولات تائية جارى فيها ابن الفارض وهي الرؤيا النبوية ، ضارع بها قصيدته (نظم السلوك) لابن الفارض في تسع وأربعين ومئتي بيت([3]).

ثم إنّ أبا الفضل كان على دراية بلغات الغرب وثقافاتهم ، إذ تعلم اللغة الفرنسية في معهد عين طورة، الذي كان يولي اللغة الفرنسية اهتمامًا كبيرا ، وتزود منها زادا ومنارا ، برز أثر هذه اللغة في شعره وعمله كذلك إلى ترجمة ما يعجبه من تلك الثقافة وأدبها ، وقد امتدت ثقافته إلى الثقافات الاوروبية بصورة شاملة مثل : دانتري ويتريس، وبتلاالاك، وسفرات، وشتوبريان، فيقول:

بيتريس مع دانتي اتانا حديثهما   ولورة مع بترارك طاب لها ذكرا

([1]) وليد المشوح، الشاعر المضيع، ص١٦١-١٦٢.

([2]) الديوان، ص٢٣٠.

([3]) النطافي، ص٨٩.

ومثل ستوبريان مع سفراته   شقيت مع أسفارنا بقت السفر([1])

وكأي شاعر عربي مسلم فلا بدّ أن يتأثر بالقران الكريم وألفاظه في قصائده ، ولكن أبا الفضل كان تأثره بالقرآن سطحيا . يقول في إحدى قصائده:

مثل المجوس عيدنا النا حيث علت   مسلمين على حمالة الحطب([2])

وقوله:

أدر حمزة ما بين هم وتفليس   نفر كسليمان الحكيم بلقيس ([3])

مؤلفات أبي الفضل الوليد

انكب أبو الفضل منذ نعومة أظفاره على التصنيف والتأليف والتعريب والترجمة .

الآثار الشعرية :

١. رياحين الأرواح .

٢. أغادير وعواصف .

٣. الأنفاس الملهبة .

هيأ أبو الفضل مسرحًا من أجمل المسارح، وجهزه بأفضل الزينة واللباس و السلاح ، وأخرج عليه روايته ، وأقبل عليها الناس أيّما إقبال([4]).

---

(1) الديوان، ص١٧٨.
(2) الديوان٣٨٩.
(3) الديوان، ص٣٨٨
(4) الديوان. جورج مصروعة، ص٦٥.

الآثار النثرية:

كان له من الروايات ثلاث كلّ واحدة منها ذات خمسة فصول وهي :

١- أسرار بغداد

٢- نكبة البرامكة

٣- أحمد وولادة

أما الروايات المعرَّبة فقد أقبل عليها أبو الفضل ترجمة ، وراح يترجم أجزاء من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، ولسوء الحظّ أضاع أبو الفضل هذه الترجمات قبل أن يطبعها ، ففقدنا بذلك أدبا قيّما نحتاج إليه .

١. البحيرة(للإمارتين): تأثر أبو الفضل بهذه القصيدة فراح يترجمها إلى اللغة العربية ، فيقول في قصيدته البحيرة :

أيا بحيرة هل بعد الحبيبة لي   سلوى وذاك الهوى باق تفجعه (1)

٢. الليالي(لألفريد موسيه) .

٣. الكوميديا الإلهية (دانتي)

٤. آخر بني السراج (لشاتوبريان)

٥. أحلام العذارى (الحب وآخره قتل)(بعثناه خاطباً فتزوج) (لدي موسيه)

٦. زوال الحب والملك.

٧. أحاديث المجد والوجد .

---

(1) النطافي ، ص ٢٨٦ -٢٨٧

٨. كتاب الصحائف (القضيتين) .

٩. المآلك .

١٠. التسريح والتصريح .

وفي الأدب التمثيلي .

١ – منغمة غافر ولبانة .

وهي منغمة ذات مشهدين نظمها أبو الفضل من أجل مصر ، وجرت حوادثها في إحدى ضواحي القاهرة ، تتكون من : غافر، وعميد، ورهام، ولبانة ، ومجموعة من فتيات الريف المصري. (١)

وأخيراً

صحيفة الحمراء .

أنشأها في نيسان ، ١٩١٣ ، وسمّاها الحمراء احتذاء بالحمراء في الأندلس ، والحمراء مسقط رأسه ، وقد كانت هذه الجريدة رسول تعارف بينه وبين الأوساط والجمعيات الوطنية في مختلف البلاد . واستمرت بالصدور حتى عام ، ١٩١٦ (٢).

---

(1) النطافي ، ص ٢٧٨ .
(2) النطافي ، ص ٣٩٤

الفصل الأول

الموقف من الاستعمار في الشعر العربي المعاصر

الموقف من الاستعمار في الشعر العربي المعاصر

لعل أول ما نبدأ به حديثنا عن الاستعمار ، هو دوافع الغرب في احتلال الشرق العربي بمناطقه المتعددة ، فمنذ مطلع العصر الحديث كان الوطن العربي مسرحًا مفتوحًا لتيارات الصراع الاستراتيجي الغربي . وبما أنّ المنطقة العربية تُعتبر ذات أهميّة إستراتيجية بالغة الأهمية لموقعها الجغرافي الفريد ، فقد سعت دول الغرب للسيطرة عليها واحتوائها واستغلال ثرواتها وتسخير مقدراتها ذات التأثير الفعّال الكبير في ميزان القوى الدولية لخدمة أهدافها المباشرة وغير المباشرة . (١)

لا بدّ من الإشارة إلى خطّة الغرب في الاستعمار التي قامت على أنّ كلّ هذا التوغل في البلاد العربية كان بحجّة الرحلات الاستكشافيّة ، وهي ما يسمى بمؤامرة الكشف الجغرافي،

ومن منطلق آخر كان هدف الغرب التحرر من النفوذ الإسلامي في الأندلس ومحاولة الانتقام من الإسلام بتطويق العالم الإسلامي وتشويه تاريخه .[٢]

ومن جهة أخرى ، نجد هذا الموقف الذي حمله الاستشراق للإسلام ، إذ تميز الاستشراق خلال مراحله الطويلة بهذا الموقف العدائي للإسلام المناوئ للثقافة الإسلامية والعربية ، لأن الإسلام يُهدد أوروبا المسيحية حتى عام ١٥٧١ ، وقد أفلح خلال ذلك في أن يزيح سلطان روما نفسها ويزلزلها ، وهو أمر لا يمكن لأي غربي أوروبي أن ينساه أو يتناساه ، وهذا الموقف يثير الاستشراق دائما في كتاباته ، ويحرك هذا الأمر الآلام في نفوس الأوروبيين . [٣]

---

[1] ـ الغرب والغرب صورة متقابلة ، سامي خصاونه ، ص ١١٣ .
[2] ـ سموم الاستشراق والمستشرقين ، أنور الجندي ، ص ٤٤ ـ٤٥ .
[3] ـ الاستشراق رسالة الاستعمار العربي مع الاسلام ، محمد الفيومي ، ص١٨٧ .

وكان العامل الدين المعادي للإسلام والمسلمين في احتلال فرنسا للجزائر الأثر القوي في هذا الاحتلال ، فقد كانت رغبة الفرنسيين قوية في تنصير الجزائر الذين كانوا ألدّ أعداء المسيحيين . [1]

ساعدت هذه المطامع والدوافع الغربَ في التوغل في الشرق ، وكسر حاجز المنعة في البلاد العربية ، وثارت ثائرة العرب على ما لاقوه من ظلم ، وتجبر غربي ، وعبروا عن هذا الغضب في أدبهم ، فقد سطّروا الشعراء مشاعر الغضب والحزن التي شعروا بها جراء الاستعمار الغربي الغاشم ، وظهرت هذه المشاعر جلية بين سطورهم الشعرية .

ويظهر لنا سبب هذه النظرة العربية للغرب من خلال المآسي المتكررة التي أحاطت بهم من ظلم الغربي المتجبر الطامع في خيراتهم .

مهما اختلف المستعمرون فيما بينهم على المصالح ، اختلافا قد يصل إلى قيام الحروب الطاحنة فيما بينهم ، فإنهم كانوا متفقين اتفاقا تاما على مخطط كيدي موحد للامة الإسلامية ، فقد كانت أعمالهم متشابهة في البلدان التي استعمروها من بلدان العالم الإسلامي . ومن أعمالهم الكيدية :

أولا : تذليل مهمات المبشرين بالنصرانية ، ومهمات المستشرقين العاملين على تنصير أبناء المسلمين وإخراجهم من الإسلام إلى الإلحاد.

ثانيا: فصل الدين عن الدولة وسائر الأمور السياسية ، وإلغاء الحكم الإسلامي تماما .

ثالثا : التخطيط للتعليم العلماني في المؤسسات الوطنية .

رابعا : إخضاع نظم البلاد للقوانين الوضعية الغربية بدل أحكام الشريعة الإسلامية.

[1] - أجنحة المكر الثلاثة ، عبد الرحمن حسن الميداني ، ص ١٧٠ .

خامسًا : إفساد أخلاق الشباب المسلم وتجريدهم من القيم الأخلاقية الاجتماعية . كالرشوة ، الإهمال الوظيفي ، الكسل ، البطالة ، الخيانة .

سادسًا : استغلال خيرات البلاد الإسلامية ، و الاستيلاء على ثرواتها العلمية والفنية والاقتصادية ونقلها إلى بلاد المستعمرين .

سابعا : محاولة الامتلاك الاستيطاني لبعض البلاد المجاورة للبلاد الإسلامية المجاورة لدول الاستعمار .

ثامنا : إثارة الفتن والنعرات الطائفية بين المسلمين وغيرهم ، واتخاذها وسيلة للضغط على المسلمين .

تاسعا : السيطرة على وسائل الإعلام لتوجيه الرأي العام ضمن مخططات المكائد .[١]

وبهذا نجد أنّ الغرب حاولوا أن يصغروا الشرق إلى شي من التسطح الإنساني الذي يكشف خصائصه بيسر وتمحيص والاكتناه ، ليزيل من الشرق إنسانيته المعقدة لطبيعته .[٢]

هناك هدف ورغبة لدى الغرب في طمس شخصية العربي ، وإلغاء كيانه لعدم اقتناعه بهذه الشخصية المعقدة .

ومن وجهة نظر أخرى أن هذه النظرة لدى الغرب قد بررها إدوارد سعيد أن الغربي كان مضطرا لأن يحمي نفسه من تأثيرات الشرق المقلقة فراح المستشرق (لين) يرسم له صورة للشرق شذب بها الشرق وحرره ، واستأصل منه كل ما يمكن أن يخدش الحساسية الغربية ، حتى بدا الشرق في معظم حالاته ، مسيئا للاحتشام الجنسي ، وكأن كل شي في الشرق يفوح بالجنس الخطر .[٣]

---

[1] ـ أجنحة المكر الثلاثة ، عبد الرحمن حسن الميداني ، ص١٧٧،١٧٨ .
[2] ـ الاستشراق ، ادوارد سعيد ، ص ١٦٧ .
[3] ـ المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

تتابع الخطر الغربي على العرب وتعددت مآسيه ، فقد بدأت مأساة الدول العربية بعد الثورة العربية الكبرى ، التي تخلصوا فيها من حكم الأتراك ليقعوا تحت سيطرة غربي لا يحمل للعرب إلا مشاعر السخط والحقد الكامن، قُسمت خلالها البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، بعد أن ركزت نفوذها وأوضاعها وضمنت لنفسها الاستقرار الداخلي.

احتلت فرنسا كلاً من الجزائر وتونس والمغرب ولبنان وسوريا ، واحتل الإنجليز مصر والسودان والعراق وفلسطين وشرق الأردن ، ودخلوا الجزيرة ، واحتلّ الطليان ليبيه [١]

تتابعت الحروب والمآسي على منطقة الشرق العربي ، ورزحت تحت سيطرة دول الغرب الطامعة بخيراتها. وكانت حملة نابليون سلاحًا ذا حدّين ؛ عسكريًا ممثلا بالجيش ، وفكريًا من خلال ما استحضره من علماء وعلوم مختلفة (٢) .

وقد كانت هذه الحملة المستعمرة من أهم أسباب اليقظة ، التي دعت المصريين إلى التحلل من الجمود والتخلف ، وقد كانت أصداء هذا الاستعمار واضحة جلية في شعر الشعراء ، وكانت بداية التجديد في الأدب عامة ، وفي الشعر بصورة خاصة.

حملت القصائد التي نظمها الشعراء في تلك الفترة معاناة الشعب المصري ، إذ صورت معاناتهم حروفًا تحمل في ثناياها تعابير، وصورًا ضخمة تعبر عن قيمة الألم وحجمه ، فها هو شوقي يقول في قصيدته احتفالاً بعيد الجهاد الوطني في ٣١ / تشرين الثاني عام ١٩٢٦:(٣)

خطونا في الجهاد خطىً فساحـــــا   وهادنا ولم نلق السلاحــــــا

رضينا في هوى الوطن المفـــدى   دم الشهداء والمال المطاحــــا

---

(١) وليم الخازن ، ص ٤٣

(2) بونابرت في مصر ، فؤاد أندراوس ، ص١١

(3) الشوقيات الجزء الثاني ، ص ٢٧ .

ولما سُلّت البيض المـواضــي   تقلدنا لها الحق الصّداحـــــا

فحطمنا الشكيم سوى بقايـــــا   إذ أعـصفت أريناها جماحـــا

وقيمنا في شــراع الحـق نلقـى   وندفــع جوفيه الرياحـــــا

نعالج شدّة ونروض أخــــرى   ونسسعى السعي مشروعاً مباحا

ونستولي على الـعـقبـات إلا   كمن الغيب والقــدر المتاحـاً

ومن يصبر يجد طول التمنــي   على الأيام قد صارا اقتراحـاً

وأيـــام كأجــواف اللـيالي   فقدن النجم والقمر اللياحـــا

فقضيناها حيال الحرب تخشـى   بقاء الرِّق أو نرجو السّراحـا

تركن الناس بالوادي قعــودا   من الإعياء كالإبل الرزاحـــي

نحو السلم إلا ظفرا جزأهـــم   بما صبروا ولا موتُ أراحـــا

ولا تلقى سوى حيّ ميـــتٍ   ومنزوف وإن لم يســق راحـا

ترى أسرى وما شهـدوا قـتالا   ولا اعتقلوا الأسنة الصّفاحـا

وجرحى السوط لا جرحى المواضي   بما عمل الجواسيس اجتراحـا

صباحـك كان إقبـالاً وسعــداً   فما يوم الرسالة عم صباحـــا

فحطمنا الشكيـم ســوى بقايـا   إذا عضت أريناها الحمامــا

وقمنا في شـــراع الحـق نلقـى   وندفع عن جوانبه الريــاحا

نعالـج شــدّه ونــروض أخرى   ونسعى السعي مشروعاً مباحـا

فأحمد شوقي يعرض بطولات شعبه ومواجهته ضد المستعمر ، وكيف سطروا بدمائهم بطولات دحرت المستعمر الذي أراد قمع ثقافتهم وطمس معالمها .

وفي قصيدة أخرى للشاعر حافظ إبراهيم بعنوان(مصر تتحدث عن نفسها) قائلا : (1)

وقف الخـلـق ينـظـرون جميعـاً كي أبني قواعد المجد وحــــدي

بناه الأهرام في ســالـف الـــد هر كفوني الكلام عند التحــــدي

أنا تاج العلا في مفرق الـــشـرق ودرايــــة فرائـد عقـدي

أي تـاج الـعـلا في الغـرب قد بهر الـنـاس جـمالاً ولم يكن منه عندي

فـتـرابي تبـر ونــهـر فـــرات وسمائي مصقولة كالفــــريد

أينما سرت جدول عـند كـــرم عند زهر مدر عنـــــد رند

وتتجلى في شعر أولئك الشعراء مسحة الحزن ، والكآبة الطاغية على هيئة شعرهم عامة ، فجاءت كلماتهم منسجمة مع مشاعرهم التي يعانونها من جراء الأحداث التي يرونها على أرض الواقع في ظل الاستعمار، وهذا ما يولد الصدق في تعبيرهم ، يقول الرصافي (2):

قامت قيامته أهل الغرب فانبعثت هزاهز بينهم عمت بني نـــــوح

واستحلفت فتنة عمياء جائحــة ثم خـضـت من دم في الأرض مسفـوح

وقامت الحرب باللأواء شاملـــة كل البسيطة حتى الأبحـــر الفيح

والأرض قد أصبحت من مكر ساكنها محمرة اللــوح أو مغبرة الســـوحِ

ضاقت على الناس وانسدلت مســا لـكـهـا فعاد كل طريق مفتــــوح

والحرب أغنت أناس غنيـــة عجباً وآخرين منهـــــم بالـمجاليـــح

ومعشراً أسكنتهم في الدار غرفـــا ومــعــشــراً بـطن ملحود ومضروح

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم ، ص٨٩ – ٩٤ .
(2) الرصافي ، الديوان ، ص ٢١١ .

ونلاحظ أن الشعر الوطني الذي يصف ويلات الاستعمار، يحمل ثلاث أفكار تكررت لدى الشعراء الذين كتبوا في شعرهم وصوروا في قصائدهم ويلات شعوبهم ومعاناتهم في ظل الاستعمار، وهذه الأفكار هي:

- التغني بأمجاد العرب القديمة وبطولاتهم .
- التحدث عن ظلم الغربي واستبداده .
- الدعوة للتحرر ورفض الخضوع والاستكانة للعدو المستعمر .

فالرصافي يرسم لنا لوحة شعرية يبين فيها معاناة شعبه ومكر الغربي واستبداده، وقد كانت هذه اللوحة غنية بالحركة واللون.

إنّ شعره الذي يعرض لنا همّ الشعب ومعاناته ينمّ عن فكر أصيل وشعور صادق، فهو رجل حزين على حاضره، يدميه هذا التبعثر للوطن والأمة .

لقد كانت سياسة دول الغرب في احتلال العراق متمثلةً بالمؤسسات والشركات التجارية ، وقد أملت بريطانيا الشعب العراقي بالحرية والعيشة الرضية(1) .

ولو نظرنا إلى فلسطين ، مثلا ، لوجدناها شعبًا متماسكا ، متمسكا بأرضه ، غير متنازل عنها تحت أية إغراءات ومساومات ، وكذلك فهو شعب رافض للتوطين غير راضخ للضغوطات والمؤامرات، ولم يقبل بديلاً عن فلسطين (2) .

وتشير الدلائل إلى صمود الشعب الفلسطيني في الدّاخل والخارج ، وصبره على الشدائد وتمرسه للنضال والإصرار والتمسك بحقه ، والسعي لاسترجاع أرضه وعدم رضاه

---

(1) تاريخ العراق المعاصر ، فاضل حسن ، ص ١١ – ١٣ .
(2) الاتجاهات الوطنية في فلسطين ، ٣٤٣ .

بديلاً عن فلسطين ، مدركاً أن الطريق صعب شاق ، وأنّ المساعي الدبلوماسية لن تثمر حلاً مشرفاً ، وحركة المقاومة ستبقى مستمرة في صفوف المناضلين([1]) .

إنّ المطلوب في هذا الوضع هو تكثيف الجهود ، والسعي الدؤوب لتحقيق التحرر من منطلق الإيمان العميق بحقهم بالأرض .

هذه هي الأفكار التي تسلح بها الشعراء عامة في بقاع الوطن العربي ، إذ نرى إبراهيم طوقان شاعر الأرض المحتلة يثور في قصائده ويفجرها غضباً معبرًا عن الأفكار التي ذكرناها فيقول في قصيدته "أيها الأقوياء":([2])

قد شهدنا لعهدكم "بالعدالــــــــة"	وختمنا لجندكم بالبسالــــــــــة
وعرفنا بكم صـــديقـــــاً وفيّـــاً	كـــيــف نـــنــسى انتدابه واحتلالـــه
وخجلنا من "لــطفــكــم"يــوم قلــتــم	وعد بلفور نافذ لا محالــــــــــة
ولئن ساء حالنـــــــا فكفـــانـــا	أنكم عندنا بأحســـــن حالــــــــه
إن الطريق طالـــــــت علينـــــا	وعليكم فما لنا والإطالـــــــــــة
إجلاء عن البلاد تريـــــــــدون	فنجلوا أم محقنا الإزالـــــــــــة

يتخذ الشاعر أسلوب التهكم والسخرية من الإنجليز ، إذ نقضوا عهدهم وغدروا بأبناء فلسطين .

فهو إذ يذكر لهم صفات اللطف والوفاء ، فذلك من باب السخرية وتذكيرهم بعدم توافرها لديهم .

وفي مقامٍ آخر نجد إبراهيم طوقان يذود عن فلسطين ، ويتصدى لهجرة اليهود إلى وطنه ويناشد بني وطنه أن يستيقظوا ويتنبهوا إلى هذا الخطر .

([1]) الاتجاهات الوطنية في فلسطين ، ص ٣٤٥ .
([2]) إبراهيم طوقان ، الديوان ، ص ١٥٧ .

فيقول في قصيدته (١٠٠٠) التي يريد فيها الكم الكبير لليهود الذين استقروا في بلاده :

أرى عدداً في السوْم لا كثلاثــــــة	وعشر ولــكــن فــاقه في المصائب
هو الألف لم تعرف فلسطين ضربــه	أشد وأنــكى منه يوما لضـــارب
يهـــاجر ألـــف ثم مهربـــا	ويدخل ألف سائحاً غير آيـــب
وألف جواز ثم وسيلـــــــــةِ	لتــسهيل ما يقولونه من مصاعب
بني وطني هل يقظة بعدد قــــدرة	وهل من شعاع بين تــلـك الغياهــب
فو الله ما أدري ولليأس هبّة أنـــا	دي أمنينا أم أهيب براغـــــب

فإبراهيم طوقان يصف لنا بالتفصيل طريقة تهويد فلسطين القائمة على تهريب اليهود تارة، وإدخالهم على أساس أنهم سائحون تارة أخرى ، أو تزييف الحقائق لتبرير دخولهم، وغير ذلك من الأعذار، ثم يبدي إبراهيم طوقان بوادر اليأس والقنوط من هذه الحال .

وفي معرض فكرة السكوت عن الظلم أو رده نجد أن ظروف الحياة والنكبات قد أثرت في إلياس فرحات ، يقول في إحدى قصائده [١]:

ومن الحوادث حافز طبعت	كلمات بالنار في كبـــــدي
أفكان يمكنني والسكـــوتُ	ولي وطن أعــز عــليّ مــن ولدي.
وأنا ابنه ألفية منطرحاً بين	الذئـــاب فضعضـــع الجلـــد

ونجد فرحات في موضع آخر يدافع عن العروبة وعن أمجاد أخفيت معالمها وشمسها..

فيقول [٢] :

ليست عروبتنا طقوس ديانــة	تذكر الجهالة بالتعصيب نارها

---

(1) الياس فرحات شاعر العروبة، سمير قطامي ، ١٢٩ – ١٣١ .
(2) الياس فرحات شاعر العروبة ، سمير قطامي ، ص ١٣٢ .

ليست تميز أحمد عن بطـرس فالأم ترعى بالسراء صغارهـا

وتضمهم فكأنها قيثارة ضـمت إلى أضلاعهـــــا وأوتارها

ما همها من لم يحج ويستلـم ما دام يرفع أين كان منارهـا؟

كل البلاد من ولدوا بهـــــا لا شيء يحـرم بقـعة زوارها

لا شأن للأديان في تشريعهـــا أجواق يهـود مثـلت أدوارها

ثم في معرض تحفيزه لشعب لبنان ودعوتهم للثورة ، نجد خطابه يتراوح بين الحدة والثورة ، وبين الهدوء والملاطفة ، يقول :

يعزُّ على لبنان أنـــــــــي أراك وقد علاك الشيب غـــرّاً

أفيك اليومَ من يرضى بأســــر وقد أمسى أسير الأمس حـــــرّاً؟

فإن لم ترضي بالعـرب اتـصـالاً فلا تجعلي جزاء الخير شـــــراً

ولا تطلبي لأوروبا انتصـــــاراً على الشعب الذي أولاك نصراً

ويقول أيضا :

وهانــت أبــي لبنان حتى كأنها عرائن أخلتها الليـــوث القاور

كأن الألى ظلوا بها من رجـــالا نساء شناع جاهـــلات عــواقر

وقد حكموا بيض العدى في رقا بهم فذلوا ولما يستحوا أن يجاهروا

وقد تعالت صيحات الشعراء التي تمثل مأساة الشعوب العربية ، إذ عبرت عن مشاعر ساخطة تارة ، وعن ومشاعر متذللة تارة أخرى .

وكما كان للاستعمار أثر سلبي مادي ملحوظ في حياة الشعوب ، كان له أيضًا أثر على الشعراء وفكرهم ، فهذا إيليا أبو ماضي نشر مجموعة من القصائد الوطنية في بعض الدول العربية إذا استثنينا مصر، بسبب حالة الإرهاب الفكري ـ كما سميت ـ التي كانت تعم المنطقة بسبب الاحتلال البريطاني آنذاك(1) . ففي قصيدته تحية الشام يظهر لنا فخر إيليا أبو ماضي ببطولات الأجداد وتغنيه بجمال بلاده ، فيقول :(2)

حيّ الشآم مهندا وحسـاما — والغوطة الخضراء والمحرابا

ليست قبابا ما رأيت وإنمـا — عزم تمرد فاستطـال قبابـا

فالثم بروحك أرضها تلثم عصورا — للعلاء سكنت حصى وترابـا

واهبط على بردى يصفق ضاحكا — يستعطف التلعات والأعشـابا

روح أطلّ من السماء عشـية — فرأى الجمال هنا ... فحنّ فذابا

ويقول أيضا :

بأبي وأمي في العراء موسـد — بعث الحياة مطامعا ورغـابا

لمّا ثوى في ميسلون ترنحـت — هضباتها وتنفست أطيابـا

وأتى النجوم حديثه فتهـافتت — لتقوم حرّاسا له حـجّابـا

ما كان يوسف واحدا بل موكبـا — للنور غلغل في الشموس فغابا

هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى — كي لا يرى في جلـّق الأغرابا

وإذا نبا العيش الكريم بماجـد — حرّ رأى الموت الكريم صوابا

(1) ديوان ايليا أبو ماضي ، صلاح الدين الهواري ، ص ٧ .
(2) ديوان ايليا ابو ماضي ، صلاح الدين الهواري ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

فالشاعر يفخر بشجاعة أسلافنا ، ويذكر رموزًا كان لها أثر كبير في بطولات الدفاع عن الوطن ، مثل : يوسف العظمة ، وكذلك يذكرنا بواقعة ميسلون .

ويرى أن الموت خير من الحياة تحت وطأة الاستعمار وتجبر الغرب .

ثم يقول في القصيدة ذاتها :

عجبا لقومي والعدو ببـــــــابهم كيف استطابوا اللهو واللعب ؟؟

وتخاذلت أسيافهم عـــن سحـــقـــه فـــي حـــين كان النصر منهم قابا

تركوا الحسام إلـــى الكـــلام تـــعللا يا سيف ليتك ما وجدت قرابـــــا

دنياك يا دنيا العروبــــــة غابة حشدت عليك أرقاما وذئــــابـــا

فالبس لها ماء الحديد مطارفا واجعل لسانك مخلبا أو نابـــــــا

لا شرع في الغابات إلا شرعها فـــدع الـــكـــلام شكاية وعتابـــــا

ويعلن الشاعر عن استيائه من موقف قومه السلبي ، إذ تركوا المستعمر يعيث في بلادهم فسادا دون أي ردّ أو مقاومة ، فقد قعدوا عن القتال وحمل السلاح . وراح الشاعر يوجه كلامه للسيف ويواسيه ويصبّر الوطن الجريح بعدما فقد الأمل من أي استجابة ومدافعة من أبناء شعبه.

ثم يعود ويستنجد من مجد الماضي لحظات عزّ بعد ما عجز عنها أبناء شعبه فيقول :

فاستنطق التاريخ هل في ســـــــفره مجد يضاهي مجدها الخلايا

شابت حضارات ، ودالت وانطوت أمم ، ومجد أمية ما شـــــــابا

الأمس كان لها وإن لهـــــا غـــــدا تتلفت الدنيـــــــا له إعجابا

فهو رغم قنوطه من خنوع شعبه ، يأمل بغد تشرق به شمس النصر والتحرر .

وفي قصيدته التي تحمل عنوان " الشاعر والأمة " يقول إيليا أبو ماضي:

خير ما يكتبه ذو مرقم	**قصّة فيها لقوم تذكرة**
كان في ماضي الليالي أمّة	**خلع العزّ عليها حبره**
يجد النازل في أكنافها	**أوجها ضاحكة مستبشرة**
ويسير الطرف في أرباضها	**في مغان حاليات نضره**
لم يقس شعب إلى أمجادها	**مجده الباذخ إلا استصغره**

فهو يروي لنا أيام عزّ كانت الأمة تنعم بها . أمّا الآن فإن الشرق ساذج غافل محروم من الحيويّة والقدرة على المبادرة ، مجبول على حبّ الإطراء الباذخ والدسيسة والدهاء والقسوة على الحيوانات ، والشرقي لا يستطيع السير على الطريق أو الرصيف لأن عقله فوضوي يعجز عن إدراك ما يدركه العقل الأوروبي البارع بصورة فوريّة . [١]

نلاحظ أن الغربي قد وضع كلّ المساوئ والتجاوزات السيئة لتشويه صورة العرب ، يقول عبد الرؤوف فضل الله : " إن الغرب قد وصفوا العرب بأبشع النعوت وهدفوا إلى النيل من كرامة العرب وقيمهم الإنسانية . [٢]

وفي مقابل هذا الاستعمار وهذه النظرة المشوهة للعرب ، وجب على العربي أن يقف موقفًا يحفظ له كرامته ، ويتخلّص من تلك الصورة التي لازمته من نعوت الغرب وكذبهم ، يقول عبد الرؤوف فضل الله :

---

[1] - الاستشراق المعرفة السلطة الإنشاء ، ادوارد سعيد ، ص ٧٠ .
[2] - الغرب والعرب وصورة متقابلة ، سامي خصاونة ، ص ١١٥ .

" حان وقت التخلص من التطاول على التاريخ وتشويه صورة العرب ، فالعرب قادرون على مواجهة التحديات ، كما يقترح فضل الله اللجوء إلى العلاقة السلميّة بين الغرب العرب وإجراء حوار عقلاني خاضع لمنطق التكافؤ ، تحقيقًا لمبدأ الوحدة بين الدول العربية ".

ثمّ قيام منظمة قوية تمثل الجانب العربي ، بغية وضع معالم الشخصية العربية الصحيحة في الأدبيات والمؤسسات الغربية ، إذ تبرز صورة العرب الحقيقية البعيدة عن التعصب والأحكام المسبقة التي رسمها الغرب من قبل ، وهذا يساعد على تبديد الانطباع السلبي والمعلومات الخاطئة والسائدة في الغرب ويتحقق السلام عبر الحوار البنّاء .[1]

وأخيرًا اللجوء إلى حمل السلاح ، وإعادة الحق إلى أهله كما رأى الشعراء القوميون، أمثال أبي الفضل الوليد وغيره من شعراء الاستعمار.

[1] - الغرب والعرب صورة متقابلة ، سامي خصاونه ، ص ١١٦ .

الفصل الثانـي

موقف أبي الفضل الوليد من الغرب

موقف أبي الفضل الوليد من الغرب:

الشرق والغرب هذان القطبان المتنافران بالفطرة ، المتصارعان على البقاء في الحقبة الزمنية والمكانية .

هذه الفكرة التي بنى عليها الشاعر والأديب العربي اللبناني أبو الفضل الوليد (إلياس طعمة) جميل قصائده، وثارت لها عواصف مشاعره المدافعة عن حياض العروبة والإسلام ،

وعن هذا الشرق المطلق الذي لا يخضع عنده لحدود، إنه الشرق المطلق الذي يقف نقيضًا للغرب، فزخرت أشعاره بهذه الفكرة ترافقها تلك الأنفاس التي نحسّ بزفراتها كأنما تدير صراعاً مع تجبر الغرب.

وتقوم فكرة الصّراع بين الشرق والغرب عند أبي الفضل الوليد على محاور ثلاثة:

- المحور الأول : نظرة الغرب لأنفسهم .
- المحور الثاني : علاقة الغرب بالشرق .
- ردة الفعل الشرقية على الاضطهاد الغربي الجائر .

أمّا المحور الأوّل ، فيتحدث أبو الفضل عن الغرب حديثا نفسياً، إذ ينهج المنهج النفسي القائم على عرض نفسيّة هذا الغربي وخبايا تلك النفس الغربية ، وعلاقته مع أبناء دينه وملّته، فالغربي ــ بنظر نفسه ــ سيّد له حقّ الولاء والطاعة وهو متعالٍ نلمح في نفسه حب التملك المدعم بأنفة تجعل من الشرقي إنساناً متخلفاً، رخيص الدم ، معدوم الكرامة، وقابع تحت إمرتهم، دمه مراق ، وخيراته التي من عرقه محرمة عليه؛ لأنّ الغربي أحق بها منه ، تحت ذريعةٍ احتجّ بها الغربي ضد ذ٠اك الرقي ؛ وهي أن الغربي مميز في الفطرة وفي أصل خلقته ، ليكون المتقدم والسيد لهذا الشرقي الذي تخضعه قوة السلاح ، ويسكته صوت السوط.

وفي ظل هذه النعوت التي صارت وصمة يُعرف بها العربي، نلحظ استعلاء الإنسان الغربي الاستعماري ، الذي يعامل الشرقي بطريقة دونية، تدعم هذه المعاملة فكرة التمييز العنصري الذي مارسته الدول الغربية ضد الشعوب العربية التي اكتوت بنيران احتلالها. كل هذه الصفات التي أزجاها أبو الفضل الوليد في نثره وشعره عن الغرب ، ليست وليدة أفكاره أو

نتاج خياله، إنما هي مستمدّة من واقع ، وهي تجارب معاشة ، وهي صور قرأ بها ملامح الشحوب والقتل على ثرى أرضه وثرى البلاد العربية.

يجعل أبو الفضل الوليد من قضيّة الشرق والغرب ؛ قضية قديمة وحاضرة ، سياسية، اجتماعية، وثقافية، إذ نصّب الغربيون من أنفسهم هرماً بلغ من الحضارة والتقدم ما يجعل منهم شعبًا ، يحتل مكانة أعلى من مكانة سواهم من الشعوب والملل الأخرى ، وبخاصة الشرق الذي يقبع في قديم التخلف ، والذي يفتقد مقومات الاحترام ، وأن على الغربيين واجب تحقيق التقدم لهذا الشعب المنطوي تحت ظل التخلف، ولا سبيل إلى تحقيق هذا التطور إلا باحتلالهم وبقوة السلاح.

إذن، فقد شاهد أبو الفضل عنف الغربي وتجبره ، بحجة رفعة الشرق وتحقيق الحرية متناسيًا القيم الأخلاقية والإنسانية التي يحملها الفكر الحضاري الذي يدعوه ، والذي يدعوهم إلى تطوير الشرق وتحريره من مستنقعات الجهل . ولكن ، هل يكون إنقاذ المريض بقتله؟

نلاحظ أن قصائد أبي الفضل الوليد قد جسّدت المحاور الثلاثة قلبًا وقالبًا، فإذا ما نظرنا إلى عناوين تلك القصائد ، نجدها منسجمة مع المضمون الذي تحمله، مثل (المغربية) التي تتحدث عن الغرب (المشرقية) التي تتحدث عن الشرق وأحواله ، وقصيدته (جنات العرب) التي نلمح فيها الإطراء والمدح للشرق وخيراته ومناقبه (التذكار على الآثار) ، وفي قصيدته (الباريسية)، نجد أنه يستخدم اسم المدينة ويصف أهلها .

وفي قصيدته الموسومة (بالهتلرية) يقدم لها بكلمة نثرية تستوعب مضامين المحور الثاني والثالث ، إذ يقول في مقدمة هذه القصيدة:

" ما كان ضياع العرب إلا لغفلتها عن طلب المعونة إلى أمة قديرة تدفع عنهم مثلها ".

ويظهر أبو الفضل أن الأمة الغربية ، وبخاصّة الألمانية منها ، تحتاج إلى قوة العرب، وأنها ــ أي الأمة الألمانية ــ تشكل مع القوة العربية قوتين متلازمتين، وأن العرب هم خير حلفاء للألمان ، والتاريخ يثبت هذا الكلام . ثم نجد أبا الفضل الوليد يظهر أن هذا التحالف مع الغرب ليس مغنماً ، إنما نجد معنى قوله موافقًا لقول الشاعر:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بدّ

إذ يقول أبو الفضل في قصيدته الهتلرية([1]):

هذه الحياة تعاون وتكافؤ فيها يحوج إلى الحقير الأخطل

وبهذا فإن العالم العربي والغربي والحوار بينهما يلفه شيء من الضبابية(٢)

يقول أبو الفضل الوليد : " أهل أوروبا أعداء البشريّة جمعاء بما نهبوه من أموالهم وسفكوه من دمائهم. "([3]) .

و يقول في مقام آخر: " والذهاب إلى أن غاية الغربيين من الاستعمار ترويج لا تدبيج الوضائع "([4]).

يجسد أبو الفضل في هذين القولين من خلال حديث نفسي عن الغرب، أن الغرب لا صديق لهم في البشرية جمعاء، بما استخدموه من أساليب وسياسات للاستيلاء على خير هذه البشرية، وهذا كله بدافع الأنانية ونزعة الأنا المتكبرة.

ولعل من المفيد أن نشير إلى ملاحظة عبرة متعلقة بالعقل الغربي، وهي التوجس الشديد من خطر التقهقر والأفول. من هنا كانت ظاهرة التوجس من زوال هذه الذاتية والتميز، وبطبيعة

---

(1) الديوان ، ص ٢٨٢ .
(2) العرب والغرب صورة متقابلة ، عبد السلام غرميني، ص٩٧.
(3) الصحائف ، أبو الفضل الوليد ، ص ١٤ .
(4) المصدر السابق نفسه ، ص ٣١ .

الحال الخوف من فقد السيطرة أيضا، وإن اختيار تعبير (الغرب) جعل هذه الكتلة الحضارية تشير بالعقل الباطن بالنسبة لهم أن الخطر سيأتي من الشرق([1]).

ولقد جسّد شعر أبي الفضل الوليد هذه النفسية الغربية التي تجلّت بالزعم والكذب، فيقول في إحدى قصائده([2]):

زعم الذين تعشقوكِ ضلالـــــــة أن لـــهدى والحق عند بنيك

نظروا إلى أقلام كتّاب ومـــــا نظروا إلى أسياف جلاديـــكِ

تالله كم من أمةٍ أرهقهـــا أنّى يكذب شـــاكر شاكيــــكِ

إن أوروبا هي الشر الأكبر، وإن العالم الإسلامي العربي يسعى إلى أن يكون هو ذاته، وأن ينزع تأثير أوروبا عنه(٣).

ويقول في القصيدة ذاتها:

الظلم من شيم الذين قـــــد ادّعوا حرية التفكير والتّملكِ

أيكون منهم بعد ظلم نفوسهم عَدل وإنصاف لمظلوميكِ

([1]) نحن والغرب عصر المواجهة أم التلاقي ، حازم الببلاوي ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

([2]) الديوان ، ص ١٣٥

(٣) العرب والغرب صورة متقابلة، خالد زيادة، ص٢٦.

لو كنت أو كانوا من الأحرار لم يسعوا إلى تقييد كل فكيــــــك

وبما أن المنطقة العربية تعتبر ذات أهمية ، وإستراتيجية بالغة الأهمية لموقعها الجغرافي الفريد؛ فقد سعت دول الغرب للسيطرة عليها واحتوائها ، واستغلال ثرواتها وتسخير مقدراتها لخدمة أهدافها المباشرة وغير المباشرة(١) .

ويقول في المشرقية(٢):

زعمتم أنكم أعوان عدلٍ تجيرون الضعيف من القوي

الآن، وكما يقال " يغلب الطّبع التطبع " ويكشف الغربي عن نواياه المخالفة لما ادعى، من خلال أعمالهم الإجرامية التي ينتهجها تجاه العرب وأرضهم ، لتحقيق مطامعه من الشرق . ويكشف لنا أبو الفضل الزيف الغربي من خلال قصائده الكثيرة.

وإن الغرب إذا حاول أن يحاورنا في كل الفترات السالفة ، فهو إنما يفعل ذلك لكي يكون أقدر على امتلاكنا ، والاستئثار بثرواتنا الطبيعية ، وعلى إخضاعنا لأفكاره ومطامعه أكثر مما يدفعه ذلك بدافع الشعور بالندية ، إنّه يحاورنا ولكنه لا يريد ينسى الإطلاق، إنه يحاور من الموقع الأول شخصًا موجودًا في الموقع الثاني أو الثالث أو الرابع، وبذلك يلغي فكرة النّد للنّد(٣).

يجسد أبو الفضل الوليد صور التجبر التي حققها الغرب في الشرق تحت هذه المسميات الفكرية التحررية، وما آل إليه الشرق من دمار وهدم وقد كان الشرق أرض التحرر وأرض الكر.

---

(1) الغرب والعرب صورة متقابلة، عبدالرؤوف فضل الله، ص ١١٣

(٢) الديوان ، ص ٧٤ .

(٣) نحن والغرب ، كلثوم السعفي ، ص ٤٣ .

يقول(١):

يا من أتيت إلى الشام وصيةً   من ذا الذي أوصاكِ أيوصيك

بئس الوصاية بالحديد وباللظى   حيث اليتامى مالهم يغريـــــك

بلدانهم مهدومة ودماؤهـــــــــم   مهدورة هل ذاك يكفيـــــــــك؟

يرسم أبو الفضل صورة العربي واستكانته مقابل ظلم الغربي وسياسته الغادرة.

إن التخلص من الوازع الديني عند الشرقيين ونهب ثرواته وخيراته يعلل لنا سبب الصراع وتوتر العلاقات بين الشرقي والغربي ، إذ إن الشرق مطمع للغرب وهذا يبرر لنا سبب هذا التبجح والسياسة القهرية التي ينتهجها الغرب في ديار الشرق ، وإن هؤلاء الشرقيين بنظر الغرب لا يستحقون هذه الخيرات التي ينعمون بها ، وإن الغرب أحق بهذه النعم ، وفي هذا يقول عبد الرؤوف فضل الله في مقالة مواقف غربية : " أن الغرب أقدموا على تزوير الحقائق وقدموا الصورة التالية عن العرب: إن العرب متخلفون رجعيون وجهلة كما أنهم برابرة وإرهابيون لا يستحقون ما يملكون من ثروات(٢). نظراً للتميز العرقي الذي يتمتعون به والهالة التي وضعوا أنفسهم بها ، كل هذا جعل لهم حقّ في امتلاك تلك الخيرات والثروات ، وفي هذا يقول أبو الفضل الوليد:

---

(١) الديوان ، ص ١٣٦

(2) عبدالرؤوف فضل الله، الغرب والعرب صورة متقابلة، ص١١٥

" إن الإنسانية في نظرهم محذوفة السين ، فهي " الأنانية " فالإنسانية والحرية في اصطلاحهم أوروبيتان لم تكونا قط آسيتين، أو أفريقيتين(١)"

ويعد هذا القول توضيحًا لقول أبي الفضل السالف ذكره ؛ إن الغرب " أوروبا " عدو للبشرية ، وهذا يعلل لنا سبب هذه العداوة وسرّها، وهذا منبعه النفسية الغربية المريضة.

وإن من مميزات الروح المّادية التي اختص بها الغرب ، أنّها غرست في أهله ميلا للنظر إلى الأمور وجهتها العملية ، وقياسها بمقياس الفائدة الحسيّة ، فصاروا يتطلعون إلى الأعمال بحسب ما تعود به من نتائج مادية أو حسيّة(٢).

ويقول في قصيدته الجهادية(٣):

له شهوة وحشية وضريبـــــــــة صليبية لكنه قد تستـــــــــرا

فحرق مجتاحا وغرّم ناهبــــــــا وقـتّـل سـفـاحا وعاث مدمرا

يبسط لنا أبو الفضل الوليد صفات ذاك العدوّ الحاقد ، التي تدل أعماله على صفاته وحقده الكامن، فهو عدو باغٍ، قاسي القلب، سفّاح، متجبر، ناهب قاتل، مخرّب.

ثم إن للغربي حقاً في التمرد ورفع صوته والتذمر من كل ما حوله ، في حين يسلب هذا الحق من الشرقي ، وذلك بناءً على تجديد من إنسانيته التي تحرّمه أيضا من أن يقول كلمة رفض ، يقول في قصيدته بين الشرق والغرب(٤) :

لهم كل يوم غزوة وغنيمة ونحن حيارى بين ذكرى وعبرة

يدلنا هذا البيت على موقفين متناقضين : قوة الظلم لدى الغربيين ، وخنوع وذلّ لدى العرب .

---

(١) الصحائف ، ص

(٢) نحن والغرب ، إبراهيم السعفي ، ص١١.

(3) الديوان ، ص ١٦٤.

(4) الديوان ، ص ١٦٤

ثمّ إن الغرب يرون في الأمّة الشرقية أمّة غير مؤهله لحمل السلاح ، وليس لها حق الدفاع عن نفسها ، بيد أنها أمة متوحشة لا يحق لها استخدام السلاح ، فيقول: "حتى إذا صدعوا أمة وضرجوها بدمائها ، شيّدوا أقلاعاً وحصوناً ، واختطفوا ما تملكه من وسائل الدفاع والامتناع، وولوا عليها عصبة قهارة نهارة ، فيتهاوى أبناء الغرباء مدججين بالسّلاح ، وأبناؤها محظور عليها حمل المُدى(1).

يقول محمد كامل الخطيب في هذا المجال ، على أن الأوروبيين ، وإن اختلفت آراؤهم في تعريف الشرق وتحديده ، فقد اتفقوا على الاعتقاد بانحطاط الشرقيين عنهم في رتبة الوجود وتآلفهم على السعي في إذلال شأنهم ، وخفض مكانتهم ، كما يدل ذلك على ما نسمع من أقوال خطبائهم فهم يشكلون عصبة ضد الشرق(2).

يقول في قصيدته المشرقية(3) :

تدججتم ولم تبقوا سلاحـــــــــاً لشعب قد غدا هدف الرمي

فما حطم السلاح سوى سلاح يماثـــله بتـــــدبير قوي

كيف يكون عدلهم في عدم التكافؤ بين الطرفين ، أحدهما : مدجج بالسلاح ، والآخر مجرّد مما يرد عنه أضعف الأذى .

يقول في قصيدته في الغرب(4) :

---

(1) الصحائف ، ص ٤١ .

(2) الشرق والغرب ، محمد كامل ، ص ٢٠٥

(3) الديوان ، ص ٧٣ .

(4) الديوان ، ص ١٦٥.

لقد حقَّر المالُ الحقير شعورنا وقوى رجال الظلم والفتكات

فلا حقَّ إلا للقوي بـمـالـه فمن للضعيف الدائم الحسرات؟

كذلك ذاتُ الخدر تجسد قـينه ويخضع ذو رفق لمن هو عاتِ

إذ يشير الشاعر إلى ماض عريق تمتع به الشرق العربي، لكنه في الوقت الحالي استحال إلى النقيض ، وفي ذلك يقول شاخت: " كان الشرق في مرحلة القرن التاسع عشر لا يزال عدوا ، ولكنه عدو محكوم عليه بالهزيمة، وكانت البلاد الشرقية أشبه بالشهود المنهارين لماض عريق(١).

وعلى الرغم من التقدم الذي حقّقه الشّرقيون على مرّ العصور ، إلا أن نظرة الغرب لم تبقَ متبلورة بفكرة أنهم شعب متخلف ، وأنهم ــ بنزعة الاستعلاء ــ هم الأعلوْن في الأرض.

يقول أبو الفضل في قصيدته بين الشرق والغرب (٢) :

فما للعدى يستقبحون محاسني ولا ذنب لي إلا علائي وقدرتي

نجد أن أبا الفضل يستفهم عن سبب تقليل شأن العرب لدى الغرب، يستحضر الجواب وحده في البيت ذاته، إذ يذكر أن السبب هو علوّ مكانة العربي وقدرته، أي ما يملكه من خيرات ومميزات تجعل منه مطمع للغربي.

يقول اللورد كرومر والمستر كبلنج: إن من مصلحة الأوروبيين أن يبقى الشرق شرقيا ، حتى نتمكن من استغلاله ، لأن هذا الاستغلال ينقطع إذا عمدت الأمم الشرقية إلى وسائل الحضارة الغربية(٣).

---

(1) تراث الإسلام، جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، ص٧٥

(2) الديوان ، ص ١٦٣ .

(3) الشرق والغرب ، محمد كامل الخطيب ، ص ٤١٤ .

هذا التجبر وروح الهيمنة هذا الظلم والاستبداد ، جعل من الغرب أهلاً للتحكم والسيطرة وتقرير المتخلف والمتقدم من الشعوب ، وهذا أعطى لهم حقَّ القتل وسفك الدماء يقول في قصيدته المغربية (1):

ما استعجموا إنما المستعربون رأوا على العروبة إحسانا وإنجابا

وفي قصيدة أخرى (2) :

يا من أتيت إلى الشام وصية من ذا الذي أوصاك أو يوصيك

يبين أبو الفضل أن هؤلاء المحتلين قد فرضوا وصايتهم وصاروا في مقام المحسن المتمنن على أبناء الشرق ، وأن بذرة الكبر التي في صدورهم هي التي أعطت لهم الحق في فرض سلطتهم ووصايتهم على الشرق المتخلف ، فالغرب يبدأ من الشرق . وهكذا يرى الغرب أنفسهم ، فهوـ أي الغرب ـ يرى في غروره وانكفائه على ذاته يرى نفسه مركز العالم، والتاريخ كما حدده الغرب لنفسه يجد جذوره في الشرق (3)

علاقة الشرق بالغرب :

يعد هذا المحور محور الصراع والغضب الذي تشتعل به نار أبي الفضل ، وهي علاقة الشرق بالغرب . ونستذكر في هذا المجال قول (rudyard kipling) الذي قال " الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبداً "(4) .

وكذلك قول أبي الفضل الوليد " الغربي عدو الشرقي بالفطرة وبينهما ما بين ملتقى الخافقين "

---

(1) الديوان ، ص ٧٩ .
(2) الديوان ، ص ١٣٦ .
(3) نحن والغرب عصر المواجهة أم التلاقي ، ص ١١ .
(4) الشرق والغرب، زياد صالح الزعبي

إن هذين القولين يجسدان لنا العلاقة بين الشرق والغرب ، وفكرة اللقاء المستحيل ، فالغرب ينظر للشرق بعين الاحتقار في حين يجعل نفسه في برج عاجي تحفه مظاهر الحضارة والتقدم ، وهو يرفض أن يكون للعربي دور أو فضل ، لذلك يعمد إلى سلبه أدنى حقوقه الإنسانية ، فقد ذكر لنا التاريخ كيف مارس الغرب ألوان الظلم ضد الأفارقة الزنوج ، الذين جعلوا منهم عبيداً يعملون بالسخرة ، وكانوا يتنعمون بما ينتج هؤلاء العبيد دون وجه حق .

وهذا الحقد يجعلهم يشنون على المسلمين هجماتٍ استعمارية شرسة ، التي من شأنها أن تحقق الانتقام مبيناً فقال مخاطبا فرنسا (1) :

أبد أرى والغدر طبع فـيك	**خطرا على أهلي وأهليك**
أكذا نقضت عهود أشرف أمة	**وبعثت أشرارا لخير مليك**

إن طبع الغدر الذي يتجلّى به الغربي يجعل العلاقة بين الشرق والغرب، علاقة حذر من العربي من أي غدر غربي والخوف يفضي إلى كره متبادل من الاثنين.

يقول أبو الفضل إنّ العداوة بيننا وبينكم ، أبدية ولن تكوني لنا في يوم صديقة ، في القصيدة ذاتها(2) :

هذي العداوة بيننـا أبديـةّ	**تسكينها يدعو إلى التحـريك**
من عهد من اتخذوا الصليب شعارهم	**للنهب والتقتيل والتهتيـك**

يوضح أبو الفضل أنّ العداء بين الشرق والغرب ليس وليد اليوم أو العصر ، إنما هو من عصور مغرقة في القدم ، وهذا ما يدل على توارث الحقد وعدم تجاوزه بالنسيان.

---

(1) الديوان ، ص ١٣٥.
(2) الديوان ، ص ١٣٥ .

وهو يشير إلى العداء بين المسلمين والمسيحيين، فيقول شاخت: " إن المبشرين نجاحات الأمم الأوروبية إلى الدين المسيحي مثلما عزوا إحقاق العالم الإسلامي إلى الإسلام (١).

يقول عبد الله النديم: إنّ دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدا شرقيا باسم الاستيلاء ، وإنّما تدخل باسم الإصلاح ، وبثّ المدنية ، وتنادي أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد ثم تأخذ بتغيير الاثنين شيئا فشيئا (٢). فهم يلبسون ثياب الحرية والديمقراطية وتخفون تحتها ثوب الخديعة والمكر، فهم يلبسون الآخرين حرياتهم تحت شعار الحرية ، وعلى ما قيل نقول : " فاقد الشيء لا يعطيه " فكيف يعدل من ظلم نفسه بظلم الناس ؟ يقول أبو الفضل أيضا :

الظلم من شيم الذيـــن ادعوا حرية التفكير والتمليك

أيكون منهم بعد ظلم نفوسهم عدل وإنصاف لمظلوميك

لا يكون من المظلوم ودّ لذلك الذي سفّه أحلامه وأدرجه تحت مستوى الإنسانية ، وسلب منه أقل مقومات الحياة الكريمة، وقتل أمام ناظريه أبناءه؛ إذ لا بد أن يدحجه بعين الكره ومشاعر الحقد، وهذا ما يخالج الطبيعة والمعقول.

تتأثر صورة العرب أيضا لدى الغربيين بأن الغرب هم عنصر ذكي إيجابي وفعّال ، في حين يبدو الشرق كأنه أنثوي ومهيمَن عليه، وبالتالي أنتج عالما مغلوبا على أمره، ومسيطرا عليه، وأن العرب ينتظرون من الغرب أن يحسّن أمرهم، بينما الغربي يمتاز بضبط النفس والعرب غير قابلين للانضباط، وأنهم فاسقون شهوانيون ، لايستطيعون السيطرة على شهواتهم (٣)

---

(1) تراث الإسلام، شاخت، ص ٧٩.
(2) الشرق والغرب ، محمد كامل الخطيب ، ص ٧٢ .
(3) صورة العرب في الغرب ، سوزان طربوش ، ص ٢٤.

إذن فادعاءاتهم مكشوفة ، وكذبهم ظاهر لدينا ، فلن نصدق ويصدق العرب هذه الترهات والألاعيب ، فالتاريخ يشهد حقدهم وكذبهم على العرب وعلى أبناء الأمة العربية بأسرها بدليل الأبرياء الذين راحوا ضحايا لقدرهم، يقول (١) :

حتّام دعوى البطل يسمعها الورى	**ويغض طرفا عن أذى حاجبيك**
وصحائف التاريخ قد خضبتـــــها	**بدم زكي حملة يوهيــــــــــك**

يعترف أبو الفضل أن العرب على علم بكذبات الغرب وادعاءاتهم ، لكنهم يغضون الطرف تجنبا للأذى الذي يلحق بهم إن هم أعلنوه ، لكنه يؤكد على أن الأبرياء الذين ذهبوا ضحيّة الغربي وظلمه؛ سيظلون حملا يثقل كاهل الغربي حمله عند تذكره، ويكشف زيف ادعاءاتهم .

ثم يتحدى أبو الفضل الاستعمار والغرب ، فيرى ، مثلا ، أنّ أرض بلاد الشام التي طمعت بها فرنسا ستكون مثوى لجثث جنودها ، وهذا سيكون جزاء لبغيهم وظلمهم ، فكما أسلفنا نسأل أبا الفضل: مَن الذي دعا هؤلاء الغرب إلى بلاد الشام ومن جعلهم أصحاب وصاية علينا؟ فيقول(٢) :

الشام مقبرة لجيشك فانبشي	**بيديك أجداثا لسفاحيك**
هؤلاء ضيعهم بلا أسف إلى	**ما في ثراها من صليبك**

لا تتمنى لقاتل طول الحياة ، إنما تدعو عليه بشديد البلاء، وأحكام الأذى، وهذا ما نلمحه في هذين البيتين، ويتوعد أبو الفضل الغرب ممثلة بفرنسا، التي تحتل وطنه لبنان . يقول أبو الفضل في قصيدته المغربية في هذا الظلم الغربي للأفارقة (٣) :

---

(1) الديوان ، ص ١٣٦ .
(2) الديوان ،ص ١٣٧ .
(3) الديوان ،ص ٧٨.

وقل إذا أرض افريقية اضطربت وزلزلت تتعاطى الموت أكواباً

فقد طرح أبو الفضل الوليد الأفارقة نموذجا على الظلم الغربي وعلى تعنتهم، وحجتهم في هذا الظلم، أن الأفارقة ينتمون إلى عرق أقل من العرق الذي ينتمون هم إليه.

فالدول الغربية لازالت تكيد للمسلمين ، وما الحروب التي شنتها على العرب والمسلمين إلا نتيجة ذلك الحقد الدفين عليهم، ولم ينسهم تسامح المسلمين عبر التاريخ الطويل ذاك الحقد القابع في صدورهم.

مقابل هذه النظرة نجد نظرة الشرقي إلى الغرب ، إذ يطارح الغربي المشاعر ذاتها، ويتبعها بمشاعر الرفض لذلك التذلل والتحقير، ويعمل الشرقي على إثبات ذاته، وأن الفضل الذي يرزح به ذلك الغربي إنما هو في أصله إبداع عربي شرقي ، ووليد ذاك الفكر الشرقي الذي ينعته الغربي بالتخلف والرجعية، وهذه النظرة التي يجحد بها الغرب العالم الشرقي، ولّدت لدى ذاك الشرقي روح الكراهية.

ويظهر لنا بشكل جلي الإحساس الذي دافع عنه أبو الفضل الوليد في أغلب قصائده ، إذ يستنهض به همم الشرقيين للتحرر من هذا الانقسام وروح الفرقة ليتسنى لهم الوقوف أمام هذا التعنت الغربي .

وفي الوقت الذي نالت فيه الاعتداءات استنكارا عاما من العرب بوصفها أعمالاً غير مجدية ؛ فإنهم عبّروا عن سخطهم تجاه الغرب بسبب الاعتداءات ضمن إطارها المناسب، ورؤية أسبابها الأساسية، ويتهم العرب الغرب، بأنهم فشلوا في التمييز بين الأعمال الإرهابية والتحررية الوطنية القومية، وأن الصهاينة هم الذين بدأوا الإرهاب في الشرق الأوسط وليس العرب (1) .

---

(1) صورة العرب في الغرب ، سوزان طربوش ، ص ٣١.

لعل ذلك الإطار من التعنت والكبر الجبروت الذي تأطرت به صورة الغرب ، كانت الداعي إلى جعل العلاقة بين الشرق والغرب تقوم على أساس الكره والتباعد بين الطرفين ، يقول أبو الفضل في قصيدته المشرقية (1) :

ونَنْصركم وأنتم من عدانـــا | فنؤخذ بالخديعة من دهـــي
ويوم السلم تنتقمون منـــا | فهل هذي مكـــافأة الـوفـــي
فبالمرصاد نحن لكم لنقوى | ونرغم انف مختال عتــــي
سنصبر حاقدين على زمان | به انتصر الخسيس على السري
فإما أن يكون لنا انتقـــام | وتــظــفير بكل فتى حـــري
وإما أن نقاتلكم ونفنـــى | بلا أسف على العيش الدنــــي

نلمح في هذه الأبيات أبا الفضل يلهج بلهجة المتروي ، ليجري مقارنة بين أخلاق العرب والغرب ليتضح لنا سبب عدم اجتماع مشاعرهما ، وتبادل الكره في الأحاسيس ، فمقابل وفاء العربي نجد غدر الغربي ، ومقابل نصر العربي نجد انتقاما بلا داع من الغربي. وفي النتيجة ، وابل من الحقد والكره الذي يسوق إلى وضع حدّ لهذا التضاد في العلاقة ليصل إلى نهاية تبين من كان منهم السيد ومن هو الخسيس.

وفي بيت نرى فيه أن علاقة العرب بالغرب هي علاقة استفزازيه تحتوي على حقد مكبوت قابل للانفجار ، يقول أبو الفضل في قصيدته المغربية (2) :

لا تحرجونا فكأس الغيـــــــض طافحة | إنا لنقطع بعد الصبر أسبابا

---

(1) الديوان ، ص ٧٤ .
(2) الديوان ، ص ٧٩ .

إذن فالبركان على شدّة تحمله واصطباره لابد ستنفجر حممه . وأبو الفضل يدعو الغرب إلى عدم تحريض العرب بأساليبه الاستفزازية ، إذ لابد ستنتهي ساعات الصبر.

إن ما يجمع الشرق بالغرب هو ثأر وحقد لن تمحيه إلا الحرب التي ترجع تلك الحقوق المسلوبة، ويذكر لنا أبو الفضل بصراحة تلك العلاقة.

إذ يقول في المغربية([1]) :

ماذا يريد عولج الروم من عرب ... لم يكونوا لهم أهلا وأصحابا

إذا فهم دخلاء متطفلون على بلاد العرب ، وأن العرب لا يتخذونهم لا أهلا ولا أصدقاء و هم أناس غير مرغوب بقربهم في أرض العرب .

وكما فخر الغرب بصفاتهم وأنفسهم ، فإن أبا الفضل الوليد يفخر بأخلاقه وأدبه ، فيقول ([2]):

كم خارج من عهودِ العرب يشتمني ... ولم أكن قط شتّاماً وسبّابــــا

آداب قومي وآدابي أعوذ بـــها ... من أن أكون مع الأوغــاد ثلابا

إن أخلاق أبي الفضل تحتّم عليه أن يحتفظ بوقار العربي وأدبه حتى مع الذين يقابلون الإحسان بالإساءة . وكما كانت نزعة الأنا المتكبرة المتفخمة عند الغرب نلمحها عند العرب ولكن ليس من قبيل الفخر ، إنما من قبيل الاستغراب من أنه على هذه الصفات وهذه البراءة. فلماذا ينعتني الغرب بصفات التخلف ويجعل منه أساس الانحطاط والفشل، وتلاحظ هذه النزعة من خلال تكرار الضمير المتكلم المفر في قول أبي الفضل ([3]):

أنا الكواكبُ السيار في ليلة النوى ... تنير سبيل التائهين أشـــعتي

([1]) الديوان ، ص ٨٣ .
([2]) الديوان ، ص ١٦٣ .
([3]) الديوان ، ص ٧٩ .

أنا البلبل الصفار في روضة الهوى تطير قلوب العاشقين لصفرتي

أنا العنبر الفواح في كل مجلـــس تعطر أثواب الحرائر نفـــحـتي

أنا العاشق العفاف في كل خلـــوة تركت العذارى معجبات بعفـــتي

أنا ما أنا إلا فؤاد معـــــــــذب ونفس ترى في الموت أكبر لذة

فما للعدى يستقبحون محاســـــني ولا ذنب لي الإعلائي وقدرتـــي

إن هذه الصفات التي وسم بها أبو الفضل العرب ليست زيفا وادعاء ، كما هو الحال في صفات الغربي ، إنما يستقيها مَن ما كان عليه العربي منذ القدم من أخلاق وعفّة ووداعة جعلت من العربي محلّ حسد من ذاك الغربي الحاقد. وإن طمعه في خيرات هذا العربي جعلت منه نقمة على العرب وعلى بلاد الشام ، وإن احتلالهم لذلك الشرق إن هو إلا انتصار آني لا بد سيزول فالأيام دول بين الناس ، وطبعها الغدر. هذا ما يعلل به أبو الفضل ضعف العرب وسيطرة الغرب .

يقول في قصيدته جنان العرب ([1]):

تصباك ما في النجم من لمعـــــان وحياك ما في البحر من هدرات

فسرت تمني النفس بالمال والعـــلـــى ولـــم تـــدر أن الـــدهر ذو غدرات

إن ما نلمحه من خطاب لدى أبي الفضل في أشعاره ، موجه إلى أيام العرب في أيام عزتها واتقاد نجمها ، ويبرر تحوّل الحال من سيادة إلى عبوديّة ، إنها حكمة الأيام على مرّ العصور والأزمان التي حكمت بتغير الحال " فيوم لك ويوم عليك " .

ويقول أيضا ([1]) :

([1]) المصدر السابق نفسه .

تكاليفه وهو الحقير كثيـــــرة   فصبرا على مستودع الشهوات

فما هو إلا جيفة لنـتـــانــــــة   ومـــا أنـــت إلا درة لــحـــيـــاة

ولا بد يوما من طلاق وعودة   إلى عالم الأرواح والنجمـــــــان

إذا فإن الغرب في نظر الشرقي هم جيفة نتنة بالنسبة للشرقي الذي هو درة الحياة ، وإن الشرقي بانتظار لحظة الانفجار والتحرر من هذا الاحتلال والعود إلى عهدها القديم الذي هو أصل العرب ، وهو الحرية وسيادته نفسها .

يقول في قصيدته التذكار على الآثار(٢) :

أقول لها إن شاقني مجد أمـــة   مناقبها غر وأبناؤها غـــــــــرر

يلوح على هذا المحيا جلالهـــا   فأهزأ بالدهر اللئيم إذا غـــــــدر

لنا أمة نأسى عليها وسيفــــــها   على طول ما أبلى بأعدائها انكسر

ولكنه قد عاد أبيض مرهفـــــــا   وكوكبها بين الكواكب قد زهــــــر

يمني أبو الفضل نفسه ؛ فبعد هذا الضعف لابد من نصر محتّم ، يغريه في هذه الثقة أن الأمّة العربية أمّة انتصارات، ويشهد لها التاريخ بذلك ، فليس لهذا الواقع المزيف ، المتمثل بسطوة الغرب أن يدوم مرجعية أبي الفضل في ذلك ، أن الأمّة العربية لابد أن تعود إلى انطلاق كما كانت في الماضي المشرق.

لقد استطاع الغربي أن ينفذ إلى هذه الأهداف والأطماع في الشرق من خلال ثغرات تعمّد إحداثها في البناء العربي ، وأتاحت له هذه الثغرات مد نفوذه لتفكيكه وتجزئته(٣) ، رغم ما

---

(1) الديوان ، ص ٨٣ .
(2) الديوان ، ص ١٦٣ .
(3) الديوان ، ص ١٦٥ .

يعتري روحه من ألم بسبب خضوع الشرق وانتصار الغرب ، إلا أن لأبي الفضل روحاً ناقدة رافضة فيقول في قصيدته الحكم بنت الشقاء (١) :

فهم كلاب بهم من حرصهم كلــــب ولن يكونوا على حق ولا رشد

ويقول أيضا :

الشرع في عرفها حبر على ورق والحق للمال والأعوان والسند
لا ترفـــقـــن بإنسانية فـــســــدت لا خير في فاسد فيها ومنفســـد

وفي قصيدته المغربية يعرض أبو الفضل لوحة شاملة لصورة بين الشرقي والغربي فيقول (٢):

هل من خلاص لنا والروم قد ضغطوا على القلوب فصار السلب إيــجابا
شدوا علينا بقــذاف ودارعـــــــــة فما وجدنا على التضييق ارحابـــــا
إن التعدي على الإسلام دينــهـــم والظلم يمتد إرعابا وإرغـــابـــــــا
تقدموا وتأخـــرنا ليــقــظـــتــهـــم ونومـــنا فــغــدا الأنذال أندابـــــا
سطوا لصوصا ولم يبقوا على بلــد لما فتــحـــنــــا لهم في جهلنا بابـــــا

فالغرب أساس الخراب، وهم الذين ادعوا الحضارة ، وكانوا سببًا في تأخر الشرق وتراجع ثقافته، فهم بذلك لصوص سلبوا خيراتنا وفرص تقدمنا . وإن مشاعر الحقد الذي غذى بها الغربي شرايين الشرقي ، جعلت الشرقي ينطق بعبارات الكره ، ويلهج بزفرات الحقد لذلك الغربي ، وبالنتيجة فإن لكل فعل ردة فعل.

إن صورة العربي تتطابق مع صورة المسلمين ، ومن ثم قد يستحيل الفصل بين الاثنين ، ففي أذهان الكثير من الغربيين أضحى مسلما وعربيا يعوض أحدهما عن الآخر؛ وذلك بالرغم

---

(1) الديوان ،ص٢٠٣ .
(2) الديوان ، ص ٨٠ .

من الأغلبية المسلمة بالرغم من تعدد الجاليات والديانات وبالتالي فإن الظلم إذا وقع على أحدهما لا بد سيلحق بالآخر[1] .

ردة فعل الشرقي على ظلم الغرب :

نلاحظ بناءً على ما تقدم أن علاقة الشرقي بالغرب وأهله ؛ قائمة على أساس الكره ، وأن الشرقي هو الذي تحمل وأوطانه هذا الأذى بصمتٍ قاهر، يعبر ـ إن عبر عن شيء ـ على قلة الحيلة والاستكانة للظلم والقبول به ، فقد سلبت أوطانه واستبيحت خيراته وبعثرت على ثرى الذّل كرامته . فأين مجد الأمة الإسلامية ، وأين مجد العرب ، وكيف بعد العزّة تستحيل إلى ذّل وهلاك مكلل بالعار؟ وكما أسلفنا فإن الشرق شرق والغرب غرب لن يلتقيا.

هذا ما دافع به أبو الفضل الوليد و استنهض همم الشرق ومجد العرب بطريقة استفزازية لاذعة، يقول في قصيدته العسكرية [2] :

هو الملكُ تبنيه الجيوش الخضارم	**ومنه على الأعلام تبدو العلائم**
فلا عز إلا من خميسٍ وراية	**ولاحق ما حمته الصوارم**
ولا دولة ترتجي وتخشى سوى على	**الجيش والأسطول منها دعائم**
ولا بطش إلا بالدفاع والوغى	**بروقٌ ورعدٌ قاصفٌ وغمائم**

هذا هو مبدأ أبي الفضل ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة ، وأي قوة ؟ قوة السلاح والجيش المدجج بوسائل النصر، فهو يستخدم كلهجة حادة ونبرة استفزاز لاذعة يحقق هدف

(1) صورة العرب في الغرب ، سوزان طربوش ، ص ١٤ .
(2) الديوان ، ص ١٢٢ .

التحرر من ذل الغرب وسيطرتهم . وفي قصيدة العسكرية نلاحظ في كل أبياتها تكرار تلك الدعوة وترديدها بنفس اللهجة والحدة .

ومن منظور آخر فإنّ روح الفرقة التي يرضخ تحتها العرب ، قد جعلت منه هدفاً سهلاً للسيطرة والاحتلال من قبل الغربي المستعمر . وأبو الفضل بدوره يورد تصويراً ووصفاً لاذعين لحال الشرق حتى يستنهض أمجاد مضى عليها زمان ، وما لبث هذا الزمان أن حولها من ومَضات مجد قديم سطره أجدادنا بدمائهم ، إلى لحظات مظلمة في دجى ليل العرب ، وهذا ما جعل الأمم الغربية التي كانت تهاب أمة العرب وسؤددها ، تستأسد وتكشر عن أنيابها أمام الأمة العربية. إذًا فقد تبدل الحال من عزّة وكرامة للعرب ، إلى ذلّ وعار يخضع تحت راياته كل الشرق والعرب . يقول أبو الفضل في قصيدته(المعلقة اللبنانية)، التي نلمح فيها نبرة اليأس والقنوط من حال العرب ، وكأنما يقف على أطلال الأمم الغابرة التي تضم أمجاد العرب الغابرة ، التي طالما تغنى أنشد العرب فيها في أشعارهم ، إذ يقف على قبور الأجداد العظام ويسمعهم شكوى ، لعلّ منهم نور هدى يهدينا إلى حلّ في هذا الخنوع ، فيقول (1) :

قفوا بني أمي نسمع ربّنا قسمـــــا ... **على القبور لعلّ الخير في القســـــم**

لعل ذكرى من الأجداد ترشدنــــــا ... **إن العظائم في بالي عظامهــــــم**

في ذمة الله أجـداث مقـدســــة ... **فيه الجدود رقود في دروعـهـــم**

ضمت جوانحهم تلك الـدروع وقـد ... **ضاقت عليها فضاقت عن قلوبهــــم**

وفي القصيدة ذاتها يقول :

فنحن نخطر في أثواب ذلـتـنــا ... **وهم ينامون في أكفان مجدهـــم**

(1) الديوان ، ص ٢٧٧ .

إن القصور التي بتنا نشيــدهـــا حقيرة عند قبر من قبورهــــم

فليت أجداثهم تنشقّ ساطعـــــــةً لكي ترينا ضياءً من ظلامــــم

إذاً فأبو الفضل الوليد يبني أفكاره في هذا المحور على بعدين : ماضٍ يمثل أمجاد الأجداد القدماء ؛ ومستقبل مرجو تحقيقه ، ويركز غير مرة على هذين البعدين فيقول في صحائفه (١):

" الأمم الشرقية تفرقت آرائها وتشعبت أهوائها ، فأصبحت معرضة للإهانة ، للأمم الغربية كأنها عليها سوام ، ولها من مواطنها زرائب لا مسارح مضى الدهر بطويل الرمح الباع ، فما كان أقدر السلف و ما أعجز الخلف . "

يرى أبو الفضل الوليد ، السلاح الوحيد للوصول إلى المـــرام هو سلاح العـــلم والقـــوة(٢)، فيصرخ أبو الفضل بوجه الأعراب ويحضهم على الثورة ويعجب لصبرهم على الذل والأذى ، فأموالهم منهوبة ونفوسهم مسخرة وبلادهم خراب ، والدين يبكي والفضيلة تصرخ. يقول (٣) :

" إن تحرير العبيد والإماء لا يتم إلا بإراقة الدماء فيتراءى سيف الشرق للغربيين فيلقي الرعب في قلوبهم من مسيرة شهرين ، لقد عرفوا بطشه في أيام الرهبوت والجبروت ، وما زالوا يخشونه مسجى على الأران مدروجا بالأكفان ، أبدا ينذر بالخطر الشرقي وهم في منأى عنه وفي مأمن منه، فماذا يكون عند وثبة الأسد الخادر على الثعلب الغادر؟ "

---

(١) الصحائف ، ص ٧ .
(٢) النطافي ، ص ٢٠٩ .
(٣) الصحائف ، ص ٨-٩ .

ويدرج لنا الدكتور زياد الزعبي في مقاله الشرق والغرب ، أن هذه الرؤية التي جسدها أبو الفضل الوليد بهذا القول " تمثل علاقة الشرق بالغرب ، ودعوة لامتلاك القوة الغادرة والطغيان الغربي إنما تمثل محور فكره السياسي القومي "(١) .

يجد أبو الفضل سلاحاً للدفاع عن صورة العرب أمام تعنت الغربي ، وهو التمسك والافتخار بالماضي ، والاعتزاز به وبمآثر الأجداد ، ليبرهن للغرب بأننا أصحاب أخلاق وأصول خالدة ، ومفاخر بطولية ؛ إذ كنا ولازلنا سادة الشعوب ورافعي لواء الحضارة والتمدن ، وبهذا يدحض نظرة الغرب لنا على أننا قوم متخلفون لا نملك حضارة وتمدنا . وفي ذلك نلمحه يؤكد نسبه العربي المادي والمعنوي بأجدادهم ويعتبر هذا النسب العروبة رابطا قويا لحفظ هذه الصورة العريقة. يقول في مقطوعة شعرية في هذا المجال (٢) :

عربية كل السلالات الـتــي نزحت الى أرض العراق وحلـــــــــتِ
واستوطنت مصر وأفريقـيــة وبنت على الأمواج أضـــــــــخم دولة
تلك العشائر والقبائل لم تكـن إلا فروع الدوحـــــــة المخضلـــــــة
أبناء سام كلهم عرب وقـــد صحت عروبتـــهم لبعـد الـعـلَّـــــــةَ

ثم يستل أبو الفضل سلاحاً ثانياً في مسيرة إثبات عراقة العرب والمحافظة على صورتهم الجميلة ، وذلك السلاح هو اللغة العربيّة اللغة الأم ، لغة الفصاحة فأبو الفضل الوليد يجد في اللغة العربيّة دوراً كبيراً في حفظ الكيان القومي والمحافظة على استمرارية بقاء الأمة فيقول (٣):

إن الشعوب حياتها بلغاتــهــا ومماتها للإهمال والنسيـــــان

---

(1) الشرق والغرب واللقاء المستحيل ، زياد الزعبي ، ٥١١ .
(2) الديوان ، ص ٥٠٠ .
(3) النطاقي ، ص ٢٠٠ .

هي مظهر الأرواح منّا فاحفظوا   أرواحكم وشعوركم بــرهــان

فا للغة العربّية هي التي توحد ذات الشعب العربي وهي لغة القرآن الكريم ، فيقول ما بيننا نسب فيه لنا شرف وهذه اللغة الزهراء برهان :

عيسى وأحمد في بلواهما اجتمعا   والناطقون بحرف الضاد إخوان

فهوية الأمة تتجدد بلغتها وبمحض نص هذه اللغة[1]وجمع رامز إلى المسيحية بعيسى عليه السلام ، والى الإسلام ممثلاً المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فكلتا الطائفتين تجمعهما لغة واحدة ، لغة الرب رغم اختلاف العقائد ، وفي هذا الرمز يقصد إلى تقاسم الهم بينهما ، مستذكرا ما لهذه اللغة ومنتسبيها من أمجاد مشرفة .

فهو يجعل من لغة القدماء مجال للفخر، ورفعاً لرايات العرب ؛ إذ إنها أسمى اللغات وأعذبها ، فيقول (٢) :

إن الذي بعث النبي محمداً   بعروبة القرآن شرف يعربــا

آياته قد نزلت عربيــــــة   فــالله بالقرآن ينطق معــربا

كل اللغات تذل للغة التـــــي   عزت وقد كانت أحب وأعذب

فاللغة العربية يستخدمها أبو الفضل رمزاً يدل على منتسبيها ، متعجبا كيف تذل لغة لها أمجادها ليس لها سوى قوة ضارة . وفي ظل كل هذا الفخر نراه يسرّح خياله في هذا المجد ينسب إليه .

إني فتىً عربي بين أضــلــعـــي   تاريخ قومي هو الأنوار والسحــــب

---

(١) تراث الإسلام، جوزيف شاخت، كليفورد وبوزورث، ص٧٦

(2) محمد سلامة النطافي ، ص ٢٠٠ .

قد رنحته أحاديث الحمى طـرباً كما تثني لهبات الصبا القصـــب

نفسي تلظت لحب العرب فاشتعلت بها نفوس إلى العـلـياء تصطحب

وفي حمئة هذا الواقع المرير التي تجبرت فيه قوة الغرب على العرب مسلوبي القوة ، يرى أبو الفضل أن يسلي النفس بفخره واعتزازه لانتسابه إلى أمجاد الأمة العربية السالفة ، ومرد هذا لديه هو الافتخار بعروبيّته قد ملأت روحه وصقلت فكه وصارت مبدأ يبني عليه شعره .

يقول كلٌ من زكي ميلاد (١)، وتركي علي الربيع ، وأن المخوف من الغرب وحده ليس كافياً في رؤيتنا وتعاملنا معه ، كما أن حماية الذات إنما تعنى أن الاهتمام ببناء الذات البناء الذي يعطينا التماسك والصلابة ، وهذا البناء يكتمل السلم في علاقتنا بالحضارة الغربية فيما نأخذ وفيما يجب أن نرفض ، وفيما هو مشترك إنساني وتتمثل روح الاعتزاز بمفاخر العرب السالفة قوية في قصيدته الأموية ، وهو يعرض من خلالها أبرز معالم السيادة العربية فيقول (٢):

لبني أمية في النفوس مكانة بالبأس والإحـسان والتبجيـــــل

ماتوا كما عاشوا ملوكاً بسلاً لم يؤخذوا بالقـــهر والتنكيـــــل

في ظلّ دولتهم وظل لوائـــــم قدتمّ فـتـــح العالـــم والمأهـــــول

فلهم على العرب الأيادي مـــا صب نـفـس إلى الـتكبير والتهليـل

إني أجل وفاءهم وبلاءهـــم فلهم عـلى الأحـرار كـل جميـــــل

ينتقل أبو الفضل في هذه من الإطار العام للعرب وأمجادهم ، إلى الإطار الخاص الذي ينسب فيه الفضل والشجاعة لبني أمية ، فنلمح هذا الفخر من تلك القصيدة ، إذ يجعل لبني أمية على الأمة العربية الأيادي البيضاء والمساعي المحمودة ، في سبيل إعلاء الأمة العربية

---

(١) الإسلام والغرب ، زكي ميلاد ، تركي الربيع ، ص ٤٠ .
(٢) الديوان ، ص ٩٥ .

الإسلامية ، ويذكرنا بالفتوحات التي حصلت في عهدهم والانتصارات التي ليست بجديدة على تلك الأمة العريقة .

وفي (مشرقيته) يفتخر بالخلفاء الأوائل ، الذين قهروا الملوك ، وفتحوا البلادَ ، ولم يترك أبو الفضل مدينة عربية إلا وذكر مزاياها ، إذ نراه يستجمع من كل قطرٍ حكاية مجد رسمها القدماء عن العرب ، فمرة نراه تغنى بالقاهرة ، ومرة بدمشق ، وأخرى بطرابلس والقدس وبغداد ، ذاكرًا كل انتصار حدث في كل مدينة من هذا المدن وما كان لها من مكانة عبر العصور الإسلامية السالفة ، ويذكر أيضاً عظماء العرب وقوادهم الذين قدموا أعظم البطولات وصور الشجاعة ، فها هو يذكر بطولة خالد بن الوليد الذي قهر الروم وأذل علوج الفرس .

إنَّ أبا الفضل في هذه الصور التي يرسمها للشخوص و المكان ، يمجد هذه الأيام ومن صنعها . و في هذه الأحاسيس التي نشعر بها ونحسها في شعر أبي الفضل في عالم من التذكر للأيام السالفة؛ وبذلك نلمح لديه روح التفاؤل التي نجد عكسها لديه ، عندها يعود إلى عالم الحاضر المؤلم .

وكما أسلفنا فقد اتخذ أسلوبين في المحور الثالث : استنهاض همَّة العرب تارةً ، واستفزاز مشاعرهم ، ومرة أخرى نجده يعني نفسه بذكر أمجاد أجداده السابقين ، بعد أن يمل من ضعف وجبن ذلك الشرقي الذي يقبع تحت ظلال الظلم والذل بعد العزَّة والكرامة . ولعل أهم القصائد التي ذكرت مجد العرب الماضي قصيدته (صيحة الديك) فلم يترك مفخرة من مفاخرهم إلا وجاء على ذكرها .

يقول فيها (١) :

---

(١) محمد سلامة النطافي ، ص ٢٠٢ .

كان الزمان ربيعاً في مرا بـــعهـــا والترب تبراً فبالعدل الثرى خضـــب

والعلم كان ديناً وعالمهم ضـــــر بهم من الملوك عليه ينثر الذهـــب

فأينما خفقت أعلامهم ضربـــوا وأينما ثبتت أقدامهم كتـبـــــوا

آمين إن جروا عافين إن غلبـــوا ناسين إن صفحوا كافين إن هبـــوا

في الشرق والغرب كما ذكروكم أثر قد خلدته لنا الأقلام والقضـيـــب

يعيش في هذه المقطوعة إحساس النصر وتنتشي روحه على أعتاب عزّة العرب ، فيسرد لنا صور النصر ولوحات الكرامة الأصلية .

ويعود ليذكر حال العرب في وقته الحاضر من ذلّ العبودية ، وعار الخضوع وقد نبع هذا الألم الذي أحسه وعاشه في كل زفراته من منبع حبّه للعروبة ، ودفاعه عن حياض الإسلام ، فيعرض صورة من المقارنة بين الشرقي والغربي ، إذ يتنعم الغربي بخيرات العرب ، والشرقي يتعب ويشقى في إنتاج كل خيراته ولكن كل هذه الخيرات تذهب للغرب ، ولكن بأي حقٍّ ؟؟

يقول أبو الفضل في قصيدته البغدادية ([1]) :

بغداد يا ثكلى الخلافةِ رجعي نوحاً له تتفتت الأكبـــــاد

فلعل ترجيع النـــواح وراءه هوج الرياح وبعدهـــا الإرعـــاد

أتعود فيك خلافة قرشيـــة كانت بياضاً والشعار ســـواد

أين المدارس والمكاتـــب رحبة والعلم فيـها طـارف وتـلاد

واحسر تاه على زمان كلـــه شرف وعز حيث تلـفـظ ضـــاد

([1]) الديوان ، ص ١٠١ .

نلمح تبدّل الإحساس لدى أبي الفضل من نشوة وفرحة في تذكره للعرب وأمجادهم، إلى الألم والتوجع على حال العروبة ، يمثلها ببغداد وما أصابها .

وفي قصيدته (الأندلسيّة) يبكي بكاء طفل فقد والديه على ضياع الملك العربي في الأندلس ، ونلمح مضمونها من عنوانها ويستغرب كيف صارت بلاد الأجداد الأفذاذ نهباً للمستعمر الغاوي، ومأوى لعلوج الروم ، فيقول (١) :

وأطول لهفي على قوم منازلهـــــــــــم تأوي العلوج ثقالاً مسخفينـــا

قد كافحوا ما استطاعــوا دون حرمتها ثم استكانوا على ضيم مطيــــــعين

ينكر أبو الفضل قبولهم بهذا العدو الغربي بينهم ، وكأنه وضع معهود ، في حين هم تثقل منهم الأرض لظلمهم وأطماعهم ، فنجدهم قد استحالوا أهل المكان والسبب هو خنوع العرب وقبولهم بهذا الحال .

ويرسم لهذا التحول الذي حصل للعرب صورة فنية : الأموي أو العباسي أو ما قبلها ثم التحول في هذه الروضة الغناء من هذه الخضرة والخصب إلى ثوب الجدب والقحط ، وهو ما آلت إليه البلاد العربية من هوانٍ وذلٍّ مرير فيقول في قصيدته الجهادية (٢) :

الشّام يقهر والعراق يضـــــــام فاليوم لا عرب ولا إســــــلام

أين العروبة والخلافة منهمـــــا والمسلمين بلادهم أقســـــام

لبني أميّة أو بني العبّاس فـــي تلك الربوع أمانة وذمـــــــام

في نكبة الزوراء والفيحـاء ما ينعى له الـــحـرمان والأهـــرام

ويسقط حزنه على الطبيعة التي تحيطه مثل نهر بردى ودجلة والنخل الذي يئن في أرض العراق وحتى بغداد قد اعتراها الحزن القاهر فيقول (١) :

---

(1) الديوان ص١١١ .
(2) الديوان ص١٤٦ .

الماء في بردى ودجلة قد جرى ودمعا وسال دما فكيف يرام

فتدلهم بغداد بين نخيلـــــهــا ثكلى لطيف حبيبها إلمـــــام

والكرخ فيها والرصافة للعــــدى ولأهلها الإزهاق والإعــــدام

الشام نـهب والعراق غنيمــــــة وعليها يتـكالب الأقـــــوام

ربما فقد أبو الفضل الأمل في تحرر العرب ومبادرتهم ، فآلت به الأحوال لمخاطبة الطبيعة العربية ممثله بدجلة والفرات والنخل ، فيجعله ينطق بهذا الظلم وهذا القهر الذي عجز البشر عن النطق به .

لقد سئم أبو الفضل التحدث للبشر من أهل الشرق ، فراح يجرّ أمانيه أحاديث حبٍّ وحزن لاذع للمدن العربية التي تئن تحت وطأة الاحتلال والحكم الغربي المتجبر يسقط على تلك المدن والطبيعة التي تحتضنها أحزانه ؛ إذ كما ذكرنا أن أبا الفضل راح يشعر بروح اليأس من استنهاض همّة ذاك الشرقي لذلك لجأ للحديث إلى الجمادات. وكما فعل غيره من الشعراء السابقين فقد هرعوا إلى الطبيعة تشاركهم أحزانهم وتتوحد مشاعرهم من هذا الطهر الخالي من الزيف لذلك نجد أبا الفضل الوليد يتحدث إلى القدس في قصيدته التي حملت اسمها "المقدسي " فهو في هذه القصيدة يواسي القدس بما أصابها من جراحات من جراء الاحتلال الغاشم .

فالقدس قلب العروبة وصرختها تدوي في أرجاء العواصم الإسلامية ومكة تئن مع القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وينعى موت الشجاعة العربية التي تنحّت وتنصلت من سيوفهم وجعلت القدس عرضة لنهب اليهودي والغاشم والمغتصب وكيف يسكن الدنس أرض الطهارة والعرب في غفلة ينعمون يقول في مقدسيته (٢):

يا قدس مكة قد أستك باكيــــــة لما أتاها بنعي الدين مـــنعاك

---

(1) الديوان ص١٤٦ .

(2) الديوان ، ص ٩٣.

واڤاك في ليلة المعراج سيدنــا   محمد وكتاب الله ســمـــاك

فبالعروبة والإسلام أنت لنـــا   والله يسمع شكوانا وشــكواك

هل تستقر جماهير اليهود إذا   دعوت يوما أبا حفص فلبــاك ؟

ويعد موضوع رثاء الدول الزائلة أهم المواضيع التي شغلت أشعار أبي الفضل الوليد؛ فقد ركز على ما أصاب تلك المدن من أسى وقد لبست ثوب الذُّل والهوان بعد العزة والرفعة(1).

ونلاحظ أنه يتمنى في ظل هذا الخضوع لو يسعفنا رجل كأبي حفص عمر بن الخطاب ، ليحرر القدس من كيد بني اليهود ، وكيف نترك بيدهم مسرى النبي ، وتساؤلات تسوق لنا انفعالات وصراعات داخلية في نفس الشاعر، تجمع بين اليأس من الواقع ، والتفاؤل من حال واقع ، والتفاؤل في ماض عريق قد خطه الأجداد ، فهو حاقد على خضوع العرب وولاؤهم لذالك الجبان الذي استأسد على من كانوا له أسيادا . **يقول في المقدسية** (2) :

إن السيوف على الأغماد حاقدة   لأنها لم تجرد في رزايـــــاك

إن الرزية كبرى لا عزاء لهـــا   حتى اليهودي أخزانا وأخزاك

على بنيك غدا في أرضهم أسد   ولم يكن في حماهم غير هتّاك

يجعل أبو الفضل السيف حاقدا منكرا لهذا السكوت ، و هذا القعود عن مدافعة العدا ، فقد ملّ ذاك الغمد الذي يحتضنه ، ويود لو يستله عربي ليعيد مجداً قد انقضى.

فقد أحبَّ أبو الفضل العرب والعروبة فسقته وسقاها هذا الحب مرارة وألما شديدين ، فهو يظهر انفعالا واضحاً في قصيدته المقدسية نفسها التي فيها استفهام منكر لما يحدث من حوله

(1) النطافي ، ص ٢٦٦ .
(2) الديوان ، ص ٩٣ .

أن كيف يستحيل مصلى عمر بن الخطاب إلى ملهى لدنس اليهود ؟ وكيف يحرم أهل تلك البلاد من خيراتها التي من صلب تعبها ؟[1] :

أحيثما عمر صلّى وحيــــث بنى بنو أميـــة للتقـــوى مصــــلاك

يمشي الأجانب في غوغائهم مرحاً ولا سكــون لمن شاقتــــه سكناك

هذا هو الحديث تحدث به أبو الفضل في حرقة بالغة وقد وافته المنية قبل أن يرى ما أصاب القدس من حرق ، ومن فساد أحدثه اليهود الباغون في تلك الأرض المقدسة ، فكأنما كانت أحاسيسه العربية قد أبلغته بما سيحل بهذا الأرض الطاهرة من فساد وخراب [2] .

يستمر أبو الفضل الوليد في حديثه مع المدن المنهكة من ظلم ذاك الغربي ، ويدعوها كأنه يخاطب إنسان للعودة إلى أمجاد الأمم العربية الماضية ، ويحقق أبو الفضل وحدة عربية مع جميع الدول ، والمدن العربية عن طريق الإحساس بهذه المدن وآلامها. فها هو يخاطب بغداد في قصيدته البغدادية [3] :

عودي إلى ماضيك يا بغـــدادُ والعرب فيك الصيد والأسيـاد

والأرض أنتِ لحكمها ولعلمهـا والماء دجلة والـــورى وراّدُ

كل السيوف على ظباك تكسرت وتجاه مجدك زالت الأمجـــاد

هذه دعوة ملؤها الحزن نحسها ونلمح شحوبها ، حزن يائس من تكرار النداء دونما استجابة فها هو يدعو بغداد ، ويستنجد بتاريخها القديم وما عرف عن أهلها من شجاعة وقوة ، ولكن لا حياة لمن تنادي " وهذا سر يأس أبي الفضل. إذن فهو لا ينتصر إلا بمجد الأمة العربية

---

(1) المصدر السابق نفسه .
(2) محمد سلامة النطافي ، ص ، ٢٠٥ .
(3) الديوان ، ص ١٠٠ .

، ولا يحن إلى ذاك الماضي العربي فحسب، وإنما دعا وحرّض الشعب والأمة العربية للتوحد لردّ ذلك الظلم الغربي ، ولتوحيد الصفوف ، ولنبذ روح الفرقة ، يقول في مشرقيته (١) :

أيا أهل المشـــــارق لا تنامــوا   فإنّ عدوكم في ألـــــف زى

وكونوا أمه يوم التنـــــــــادي   على أمم من الغــرب الغــوي

فوهن الشعب من وهن المــــزايا   ومن فقد السلاح المعنـــوي

وضعف العزم والأخــــلاق أودى   بآلاف لدى نفر قـــــوي

يطلب أبو الفضل إلى ذاك الشرقي امتلاك السلاح المعنوي ، قبل أن يمتلك السلاح المادي . والسلاح المعنوي هو: الإعداد النفسي ، والتحرر من ذل الخوف والاستكانة ، ونبذ روح الفرقه بعد هذا يسعون إلى امتلاك السلاح المادي للدفاع والمقاتلة .

ويناشد أبو الفضل العرب أن يغاروا على دينهم ، ويحموه من أعدائه ،و أن يموتوا دفاعاً عن شرف الإسلام ، وعزة المسلمين و أن يحفظوا خير ميراث بالروح ، والدم ويسلكوا السبيل القويم في إدارة البلاد ، والحفاظ عليها على نهج الخلفاء الراشدين الذين بنوا للعرب والإسلام مجداً خالداً أبد الدَّهر، وحفظوا عزة الملك ، وصانوا كرامة الإسلام (٢). وكما حاول استنهاض العرب عن طريق الماضي العريق واللغة الأم ؛ فإنه يستخدم سلاح الدين ، والذي كان دافعا لذلك الغربي لاحتلال الشرق ، وأرضه وهدفهم هو القضاء على الروح الدينية التي يتمتع بها الشرقي ويعتقد بها . فهاهو يدعوهم للدفاع عن الدين الإسلامي ، وصون كرامة أمة العرب .

فيقول (٣):

---

(١) الديوان ، ص ٧٥.
(2) محمد سلامة النطافي ، ص ٢٠٧ .
(3) الديوان ، ص ٧٦ .

أغيروا كلكم عرباً وغـــــاروا		على الدين الحنيف الأحمدي

ودون الملك والإسلام موتـــوا		على حق كسيدنا علـــــي

وصونوا خير ميراث وسيـروا		على النهج القويم الراشـــدي

فالحياة في نظر أبي الفضل الوليد إما أن تعيشها بكرامة الدين الإسلامي وعزه ، وإلا فالموت أفضل . والقدوة في ذلك الإمام علي بن طالب ، والخلفاء الراشدين، ثم يطالب أبو الفضل العرب أن لا ينقسموا ، وأن يحافظوا على عروبتهم ، وبخاصة أبناء المغرب العربي وأن يتحلوا بشمائل الفاتحين الأوائل فيقول المغربية (1) :

يا إخوتي هل نسيتم أنكم عرب		حتى رأيتم من الأعراب إغرابا

ما للتواريخ لا تذكي حميتكـم		وقد غدا الذل في ضرائكم دابـا

عودوا إليها تعيدوا كل مفخرة		ففي الرسوم يقين للذي ارتابا

وفي دعوة إلى أهل بلاد الشام يدعوهم فيها إلى الشدائد ، والبلايا وعلى تعنت ذلك الغربي ، وتجبره ، **فيقول** (2) :

يا أيها الشامي كن متجلـــــــــداً		ولأجل أهلك أو ديارك جـــــالد

إذا دعيت إلى الكريهة كـــــن لـها		بـطلا فاحقر بالجبـــــان القاعد

لله والحق اغضبن وإن تمـــــــت		مسـتـشهداً أحياك حمد الحامـــد

ودعوة أبي الفضل واضحة للجهاد، والاستشهاد من أجل العرب ، ومن أجل الدين والإسلام.

---
(1) الديوان ، ص ٨٠.
(2) الديوان ، ص ١٣٠ – ١٣١ .

وفي دعوةٍ أخرى للأمة العربية ، نجده حازماً في لهجة حادة يدعو العرب لاستلال الحسام، والتوغل في معارك ضد ذاك العدو ،وقمع شره من أرض الشرق الطهور، ولإعادة الحقوق المسلوبة فقد كان أبو الفضل عنيفاً في ثورة حين دعا إلى امتشاق الحسام والثورة ، لانتزاع الحقوق المسلوبة في انتفاضة عارمة(١) .

يقول في الجهادية (٢) :

في ثأركم فتكاً وبطشاً منهـــــــا — يشفي الصَّـدى الزّاقي ويـروى الــهـام

ضحوا بهم لله خير ضحيــــــــة — في نحركـــــم تفـــدا بـــه الأغنـــــام

أعداؤكم أعداؤه وجـــنــودكــــم — أجنـــاده وخصـــومه الأصنـــــــام

ربٌّ السمــاء رقيبهم وحسيبـــهـم — وهو القديـــر العـــادل العـــــلاّم

فغــداً بأياديكـــم ينفـــذ حكمـــه — فيهـــم ولا عفـــوٌ ولا استرحـــام

نراه في هذا الخطاب يزرع الثقة في نفوس أبناء العرب :أنهم قادرون على ردِّ هذا العدو الغربي الغاشم ، وأن يقينه في هذا النصر منبثق من رحمة الله ، وإيمانه بأن الله مؤيد للأمة الإسلامية العربية بنصر وجنود يقاتلون في صفوفهم ، وهذه هي الروح الإيمانية التي تجعلنا نحن أمة العرب عرضة للهجمات والصراعات . وقد كانت –عبر العصور–هذه النزعة الدينية مميزة الأمة الإسلامية.

وإذا ما أمعنا نظرنا في التاريخ القديم نلمح أن الحملة الشعواء ضد العرب ليست حديثة ، فقد كانت في بداياتها ، و مثال على ذلك في العصر العباسي الحملة الشعوبية التي عملت على

---

(1) محمد سلامة النطافي ، ص ٢٠٨

(2) الديوان ، ص ١٤٩ .

التقليل من شأن الأمة العربية ، بدلائل وإشارات أخذت على محمل الصحة (وإن لم تكن كذلك) وهذا الحقد الغربي ليس وليد اللحظة ، أو العصر الحالي .

وإن أبا الفضل الوليد لم تكن حملته خاصة بشعبٍ ، أو بأمة بعينها ، كانت حملته ضد كل من حاول قمع الروح العربية ، وكل من حاول محاربة العرب. ووضعهم في إطار التخلف مثل أمة الغرب ، والعثمانيين الذين أخضعوا العرب في بلاد الشام وغيرهم لحكمهم لمدة أربعمائة عام ،وقد سلبوهم حقّ التطور، وحقّ متابعة ركب التطور والحضارة ... فالأتراك في نظر أبي الفضل أعداء العروبة ، يقول (١) :

فإلى الجهاد إلى الجهـــاد تصارخٌ   وعلى الجهاد على الجهاد زحام

وقلوبكم لأكفكـــــم جماعـــة   وجهادكم لسلاحكم ضمَّـــام

صفوٌّ كتائبكم وروضوا خيلَكـــم   ولهم ضرامٌ بينكم وصـــرام

كما أن أبا الفضل يستعجب من حال الركود ، والاستكانة لظلم الغربي، وعدم أبداء محاولة للتحرر، والتخلص من الذل وتبعات العار ... فبلادهم وخيراتهم نهب ، والدين واللغة والفضيلة أهينت .... فكيف تصمت؟. فيقول (٢) :

يا مسلمين تقطعت أوصالكـــم   وأنصالكم قد بكّها المرجـــامُ

حتامَ أنتم صابرين عــلى الأذى   وإلام أنتم غفَّلٌ ونيـــــام

أموالكم ونفوسكم منهوبـــة   ودياركم فيها الخطوب جســام

أو أمالكم بجدودكم من قـــدوةٍ   إن الجدود الماجدين عظــــام

---

(١) الديوان ص١٥١ .

(٢) الديوان ، ص ١٤٨ .

أما من الناحية الدينية ، فيرى أبو الفضل أنه يجب على المسلمين أن يحافظوا على الدين الحنيف ، الذي هو سبب في رفعة الأمة وصمودها ، فإن صلح دين الأمة صلحت أمورها ، وإن أهمل الدين كان بمثابة الحجر الأساس الذي إذا اختل يقوض البناء كاملا.

فيقول (١):

قولي لأهلك بعد طول بلائهم	أنتم أقارب فأعبسوا لأباعد
يا ويلكم أن أصبحوا أسيادكم	وطالما شقي المسود بسائد
فتثبتوا بعقيدة عصبيّة	وطنيّة عند اختلاف العقائد
أدمشق عاصمة البلاد استعصمي	بالله بين دسائس ومكايد

إذن فالدين أساس الأمة ويجب أن يتمسك الإنسان بالدين ، حتى يتسنى لكل أمّة أن تبني عقائدها ،وإيمانها على أساس الدين . لأن البعد عن الدين أدى إلى الاستهانة بهذه الأمة ، وهذه الأرض التي شهدت أمجاد الأمة العربية.

فها هو يوجه حديثه إلى فتاة ويناقشها .. وهذه الفتاة :هي الأرض العربية التي يلومها على ما صارت إليه من خراب وتشرّد ، فيقول(٢):

أبعد ما كنت للأقطار عاصمة	أصبحت لا تعصين الشام متفردا
أرض العواصم هدتها قواصمهم	والشعب والمال فيها أمسيا بددا
فمصيري ويل الدنيا قد اتحدت	تلك الطوائف شعبا سيدا واحدا

(1) الديوان ، ص ١٢٨ .
(2) محمد سلامة النطافي ، ص ٢٠٩ .

ومن وجهة نظر أبي الفضل فإن الحلّ الأمثل للتحرر من قيد الغرب هو الهجوم بصورة جيش واحد متماسك ، لإخراجهم من البلاد بقوة السّلاح ، فلا حياة لشعب محكوم لأجنبي ،ولا حياة مع الاحتلال . فيقول (1):

أرى العرب قد صاروا شعوبـــــــا كثيرة مقسمة تشكو تباريح محموم

وأني أسرّ أعثرنا نقاض دولــــــة وملك بأيدي الترك والروم مهـــدوم

فمن لي بإجلاء العدا عن ديارنا بضربة صمصام وكـــــــرّة يحـوم

ولعل أبا الفضل ردد وتغنى بأمجاد العرب القدماء، ليس من الإحساس بالضعف وحسب، وإنما كان في تخليده لهذه المواقف قوةً يكتسب منها استمراره في هذا النهج الذي انتهجه.....في طريق الدفاع عن عروبته التي أحبها .... ولعل مناجاته لأروح الشهداء، والقدماء من ذل العرب تدللنا على ذلك. والإحساس الذي نشعر فيه يخترق أجواء قصائده عندما يتحدث عن أمجاد العرب فكأنما روحه تسمو لتعانق أرواحهم، فتسمو فيتولد في نفسه الإحساس بالفرح ...

وقد دعا أبو الفضل مراراً وتكراراً إلى تحرير الأرض ، وكسر القيود التي وضعها الغرب الظالم ، إلى أن تتحقق دعواه في عام ١٩١٦ ، انبجست الثورة العربية الكبرى من رحم الظلم ، والقهر لتحرر العرب من ظلم الاستعمار التركي العثماني ، فيقول في قصيدته (صدى الأجيال) (2) :

الله أكبر إن السيف عريــــــــان لكي يتحرر أقوام وأوطـــــان

بشرى العراق وبشرى الشـــــام ففي الجزيرة ثوراتها لها شأن

جزيرة العرب قد هبّت عواصفــها فلن يقوم بها للعجـــــم بنيان

---

(1) محمد سلامة النطافي ، ص ٢١٠ .
(2) محمد سلامة النطافي ، ص ٢١٠ .

وهذه الثورة كأنما أنعشت روح أبي الفضل بعودة أمجاد العرب ،ثم قال قصيدة احتفاءً بدخول فيصل بن الحسين مدينة دمشق سنة ١٩١٨، وعبَّر عن فرحته بقصيدة مجلجلة فيقول([1]):

الله أكبر عادت دولة العَــــرَبِ بشرى الهارون والمأمون في التربِ

دمشق حنَّت إلى بغداد وابتهجت مصر التي هي دار العلـــم والأدب

فقد كان الملك فيصل رمز الأمجاد البائدة ، وعليه علقت آمال ذلك الشعب العظيم، وأحلامه ، وفي مقابل هذا الفرح الذي رأيناه في الملك فيصل بن الحسين دمشق نجده ينوح الحمائم استشهاد بطل ميسلون الشهيد "يوسف العظمة في قصيدته "الشهادية " التي أظهر بها الشاعر زفرات حزنه على رمز التحرير، ورمز عزَّة الأمة. إذ حطَّم موته أماني العرب في تاريخ عزها ، فيقول مخاطباً يوسف العظمة([2]) :

أيوسف يا ابن العظمة استعظم الورى شهادتك المثلى ومثلك لم يـــرا

ترديـت فارتـدت أمانـي أمـــةٍ مشردةٍ تشتاق عرشاً ومنبـــراً

فسوريه الثكلى عـليك تفجعـــت وقد ذهبت فيها النفوس تحسـرا

فنم في ثراها مطمئـنـاً مكرمّـاً فذلك الثرى قد صار مسكاً وعنـبـرا

عليك صلاة المصطفـى وسلامـة فأنت كبير صار بالموت أكبـــر

([1]) المصدر السابق نفسه .
(١) الديوان ، ١٤٣ .

أبو الفضل الوليد قد وجد ضالته في يوسف العظمة الذي علق عليه آمال الأمة ، ليعيد إليها مجدها ، ولكن هذا الأمل ما لبث أن تلاشى على أثر استشهاد ذاك البطل ، وكذلك كان أمله في فيصل بن الحسين لتأسيس دولة عربية في سورية.

نراه يخاطب الأمة فيقول في قصيدته الشهادية **فيقول** (١):

هوى القائد الأعلى فتى العرب الذي	**حكى أنجد القواد بل كان أمهـــــرا**
وجاد بنفس حـــرة مشمئـــــــزة	**تسود لـــو بالمـــوت أن تتحـــررا**
سلام على الأبـــطـــال إن دماؤهــم	**ستــحيي شعورا لن يــموت ويقبرا**
وما بسقـــت حرية وتـــأصلـــــت	**بغــير الذي يجري من القلب مهدرا**

فمن الطبيعي أن يستأثر موضوع البطولات ، والتضحيات العربيّة باهتمام أبي الفضل الوليد ، ولعل الأحداث التي حدثت جعلت صيحات الثأر ترتبط بالثورة مع دموع الحزن والأسى ، وقد عمد أبو الفضل إلى تخليد الموقف رغم ما تبعثه من ألم ، وحزن فخلد تلك الأحداث في قصائده دون أن تبدو منه بوادر ضعف (٢) . ونرى بعد هذا أن أبا الفضل قد آمنّ بالقوة في حل الأمور ، ودعا إلى استعمالها بحماسة فهو لا يرى غيرها حلاً .

فهو الحل الأمثل ، وإلاّ فالخضوع لبني الغرب، والبقاء تحت دناءة أطماعهم ومعتقداتهم يقول (٣) :

فنعم البطش فيه ثــــــــــــــار	**لحق أو لعرض مستباح**
ونعم الفتك بالظلام حتـــــــــى	**يزول الظلُم أدراج الريــــاح**
وما فلَّ الحديد سوى حديـــــــــد	**فقد سخر القوي من النوّاح**

(١) الديوان ، ص ١٤٢ – ١٤٤ .
(٢) النطافي ، ص ٢١٠ .
(٣) النطافي ، ص ٢١٦ .

فكما نلمح في البيت الثالث يضع أبو الفضل خيارين، إمَّا القوة، وإما السخرية وذل العبودية مع النواح والبكاء، ... ونلاحظ من جهة أخرى أن قصائده الوطنية كلها تزخر بالحديث عن النقاط الثلاثة السابق ذكرها:

1. **علاقة الشرقي بتسلط الغربي.**
2. **وصف لحال الغرب .**
3. **تحفيز العرب لرد هذا العدوان الغربي ،واستنهاض الهمم العرب لإعادة مجد آل يعرب**

وفي مجال الاستعمار لا تنفع اللغة، ولا الثقافة ، ولا يضير حضارة ، إنَّما القوة هي السلاح وإنما نفسر هذا التقلب بين المواقف الثلاثة، إنّه تقلب في ذاك العربي الذي أحبَّ العروبة والإسلام. .... فقد رأيناه يتغنى بسحر جمالها، ويجعل العروبة فتاة يسقط عليها كل معايير الجمال، والحسن الطاهر والوقار ، ونلاحظ أيضًا أنه يسمي قصائده باسم البلدان العربية كالبغدادية / المقدسية /المغربية / المصرية /المكية .

ويرى أبو الفضل أن لا مجال للتفريق بين العروبة ، والإسلام فإن عاطفته الدينية هي التي دفعته إلى الدفاع عن العرب ، والعروبة فيقول: مفتخرا بهمم العرب في قصيدته الرؤيا النبوية ([1]) :

أغيروا كلكم عربا وغـــــاروا　　　على الدين الحنيف الأحمــد
صلاح الدين مات فهل سمـــي　　　لقاهر هم له بأس السمـــي
فيغدوا الشرق حرا مستقـــــلا　　　فتجمعه خلافة هاشـــمـي

([1]) الديوان ، ص ٧٦ .

فهذه دعوة من أبي الفضل الوليد إلى نجدة الدين الإسلامي الحنيف. فهو يتوق إلى صلاح الدين ففيه صلاح الأمة ،ووحدة كلمتها .

وأبو الفضل يلجأ لعام الأمة العربية للتعبير عن الخاص ووطنه لبنان.

فهو ولم يقتصر ــ كما أسلفنا ــ حديثه عن وطنه لبنان ، إنما كان الشرق لديه كل الوطن العربي ، وربما تجاوزه ليحقق شرف مطلق كما ذكرنا آنفا حتى وصل به الحديث عن الصين واليابان، والهند كشرق مطلق ، ويحرقه ما يحصل للمسجد الأقصى بنار الغيرة فيقول ، وقد دنس اليهود بركة هذه الأرض وطهرها (1) :

قد أذل العربي المسلمـــا ليهودي زنيم شـــــــــرس

ضامه في المسجد الأقصى ضام عيسى وسط بيت المقدس

يظهر لدى أبي الفضل سلاح مساند لسلاح القوة ، وهو التمسك بالدين الحنيف، والسير على نهج الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ **فيقول** (2):

فما لنا قوة إلا بسيدنـــــــا محمد فهو يرعانا ويهدينـــا

قد اصطفى بين كل الناس أمته كما غدا المصطفى بين النبيينا

لقد عانى أبو الفضل الوليد الأمرّين، إذ عانى في بلاده ألم مظاهر الدمار التي حلّت في وطنه لبنان من جراء الاستعمار، وظلم الغربي واستيلائه على كل ما هو جميل في وطنه لبنان .

---

(1) الديوان ، ص ٨٠ .
(2) الديوان ، ص ١١١ .

ومن جهة أخرى عانى من أشواقه اللاذعة، وحنينه غير المنقطع لهذا الوطن الذي هجره ، وفر منه إلى المهجر، وتراوحت مشاعره بين ثنائية الأمل واليأس ؛ التفاؤل والتشاؤم من حال العرب ، فيقول في حنينه إلى وطنه وحزنه على ما حلّ به (1):

على الشاطئ المصري ظل فتى الشام   يقلب كفيه على قلبه الدامـــــــــي

تصباه حسن الشام بعد فراقهـــــــا   فنحن إلى ذيالك الحسن في الشام

إن قصيدته المعروفة بالمعلقة اللبنانية ، تمثل خير دليل على حبه لوطنه وحرصه على تقدمه واستقلاله ، فهو يمدح شعبه وأخلاقهم، ويحثهم على تكسير قيود الظلم والاستبداد والتضحية لأجل رفعته . ويشمل حنين أبي الفضل لوطنه جانبين : هما حبه لوطنه ؛ ودعوة أبنائه إلى التحرر والنهوض (2). فيقول (3):

تقدمت وكن بالله ذا ثقـــــــة   واسترجعن سليب الأرض بالقدم

واستعذبن المنايا وامشين على   ميادة الأرض أو خفاقة النجـــــم

وكسرن قيود الظلم منتفضـــا   واسمعن صليل الصارم الخـــــذم

مزقن العدى من هول معركـــة   والخيل صهالة قطاعه اللجـــــم

---

(1) الديوان ، ص ١٥٩.

(2) النطافي ، ص ٢٢٢ .

(3) الديوان ، ص ٢٧٥ .

ويهدد المستعمرون سفه أحلام شعبه ، ويهزأ بآماله وخيراته، ويتواعد تسلطهم على شعبة وأبناء شعبه ، فلا بد من أن يأخذ أبناء هذا الشعب حقوقهم بقوة السلاح. فيقول ([1]):

ياهازئين بشعـــــــب أمـــــلاً　　　وضاحكين الدمع منه منسجـــــم

بعد الشكاوى التي أفنت مدامعنــا　　　ستسـمعونا وإن كنتم ذوي صمـم

نشكو ونطلب إصــلاحا لأمتنــا　　　فتشبعونا من التعليل والكــــــلم

سنطلب الحقّ يوماً بالسيوف فلا　　　نرتَّد حتى نرويها من اللمـــــــم

ويسقط أبو الفضل الإنسانية على الدول والمناطق العربية التي ذاقت ويلات الدمار والاستعمار، فيقول في رثاء دمشق ، وكأنه يرثي شخوصا حقيقيين ، فيقول([2]):

عج بوادي بردى ذاك الوسيـــــم　　　واسأل الجنات عن أزهارهــا

ضاقت الفيحاء بالخطب الجسيم　　　والفرنسيس على أنهــارهــا

ويقول أيضا:

جوها من ظلمهم قد أظلما　　　وعلى أرواح ثقل الحنــــــدس

لطموا الحق وداسوا الحرما　　　وتعاطوا مترعــات الأكــؤس

يقول النطافي في رسالته إن الحل الأمثل لحل الفرقة بين العرب وتوحيد صفوفهم، وطرد الدخيل من أرضهم ، هو أن يكروا كرة واحدة على أعدائهم ، ويخرجون من بلادهم بقوة

([1]) المصدر السابق نفسه .

([2]) الديوان ، ص ٥١٨

السلاح ، فلا حياة لشعب يحكمه الأجانب، وأرضه نهب للغرباء (1). ويقارن بين ماض مجيد ، وحاضر ذليل فيقول (2) :

قد سقينا الأرض دمعا ودما وسمحنا بأعز الأنفـــــــس

كيف لا تقضي أسى أو ندما بعــد ذياك الخيال الــمؤنس

فهنا يقول إن وطنه الشام، ولكن لا حق له فيها، فخيرها ليس له، وجمالها ليس له.

يقول (3) :

وطـــــــــني الشام وفيه الوطر عربي أنا فليــــــحي الغرب

وإذا الدهر صفا وابتســـــــما كن مـــع الكيسى نديم الكـيّس

وفي مقامٍ آخر نجد أنَّ أبا الفضل قد جعل خلاصة أفكاره ،وتجاربه، ورؤاه حول التحرر من ظلم الغرب المستعمر ؛ جعلها في كتابه النثري المعروف باسم "الصحائف" سابقاً، و"القضيتين"حالياً ، فقد كشف من خلال ما عرضة في الكتاب من أقوال وآراء زيف ادعاء المستعمر، وألاعيبه، وأساليب الغدر التي لوث بها هذه الأرض المشرقية الطاهرة . وفي المقابل رسم هذا الكتاب الحلم العربي الذي يرجو تحقيقه ؛ وهو إعادة مجد أمة العرب القديمة عبر استخدام قوة السلاح، وإعداد الجيش الذي يحقق تلك القوة.

فقد جمع أبو الفضل بين حضارة الشرق من خلال عروبته، وانتمائه إلى هذه الأمة،وبين حضارة الغرب عن طريق حياته في المهجر، فعرف فكر الأمتين ومعتقدهما ، وساعدته معرفته بالتاريخ العربي، والغربي بمعرفة كيف يفكر أبناء الأمتين العربية والغربية ؟ . وكما لاحظنا

---

(1) النطافي ، ص ٢١٠ .
(2) الديوان ، ص ٥١٧ .
(3) الديوان ، ص ٥١٩ .

فإن هذه الأفكار قد أدرجها أبو الفضل في شعره ونثره ، ففي كتاب " الصحائف" كما وضع لنا محمد سلامه النطافي في رسالته قد قسَّم مقالات هذا الكتاب إلى عدة نقاط تناولها أبو الفضل في الدراسة ... وضمنها في كتابة الصحائف (القضيتين).

فكما قسمها النطافي ، نجده يتحدث في المقالات الستة الأولى ، عن العروبة ، والإسلام وعن المحور الثاني من محاور دراستنا ، وهو علاقة الغرب بالشرق ،القائمة على فكرة العداء الدائم، غير الخاضع للسلام مهما تقدمت الأزمان ، ثم إنَّ الغرب قد استباحوا خيرات الشرق وقتلوا أبناءه .

يقول أبو الفضل في هذا المقام :

" فإن أهل أوروبا أعداء البشرية ، نهبوا أموالها ، وسفكوا دماءها ، ومن المصيبة أنهم يدعون الرحمة والعدل والإنصاف ، وكل ما هو منهم مفسدة لنا ،وخطر على أوطاننا وأخلاقنا آدابنا وديننا ، فعلينا أن نبتعد عنهم ، وألا نتعاون معهم وألا نشتري منهم ، ولئن أحوجتنا دواعي الدهر فلنخصف على أبداننا ورقا لنستغني عن أكياسه الأجانب ".

يكشف هذا الرأي لأبي الفضل الوليد عما يكمن في صدره من آراء عدائية ،وحقد دفين للغرب ؛ إذ يرى أنهم ــ حتى فيما يقدمونه للعرب من فوائد وسلع ــ ضرر لهم ، ويؤكد أنه لا بد للعربي من الاستغناء عن كل ما يمكن الإفادة منه من الغرب ولو اضطره ذلك إلى الاعتماد على أبسط المقدرات الطبيعية التي تغنيه عن الغرب وما يقدمونه .

وإن الدين الإسلامي يعد من أهم الأسباب والدواعي لتوليد الحقد بين العربي والغربي، فالشرقي بالنسبة لهم بالضرورة مسلم وهذا مصدر نقمتهم وتجبرهم على الشرقي ، وهم يسعون إلى تجريده من الدين ، وإلى جعله إنسانا لا يحكمه دين ولا معتقد ، إذ يرون في هذا الدين مصدر القوة للشرقي ، وهدفهم ذله وتهميشه .

وبالمقابل نجد عكس هذا المعتقد لدى أبي الفضل الوليد الذي قرر اعتناق الإسلام يقينا منه أنه هو الشيء المكمل لعروبته، وارتقاء فكره ،وصقل شخصيتة ، فمن الطبيعي أن يكون رأي أبي الفضل مخالفا يقف بوجه تلك الحركات الغربية التي تسعى لهدم الدين،. إيمانا منها بأن هذا هو السبيل الوحيد لهدم حضارة الشرق ، لأن الدين كان نورا يهتدون به لبناء الحضارة، ورقي الإنسانية .

ولما رأى الغربيون في سياستهم انتصارا وهيمنةً على الشرقي ، أصبح بنظرهم أن لهم الحق بالتدخل في شؤون العرب، محتجين بداعي الإصلاح ، أي إصلاح حال الشرقيين ،الذين لم يزالوا ـ برأي الغربيين ـ تحت وطأة التخلف والرجعية ، وأن على الغربيين تحقيق التحضر والتمدن لهم. لو أنهم حققوا الإصلاح لكان أمرا مرضيا ـ في رأي أبي الفضل الوليد ـ ولكنهم اتخذوا من هذا الادعاء جسرا يعبرون به للدمار والنهب والقتل .

وفي المقال التاسع حتى المقال الثاني عشر ، نلمح معالم المحور الثاني الذي يصور حال العرب تحت سيطرة الغرب الشقي ، وصيحات الألم التي رافقت معالم الدمار التي أصابت الشرق الأبي ، كما نلمح معالم المحور الثالث الذي تحدث عن استنهاض العرب لردِّ كرامتهم ، وخلع ثوب الذل الذي يلبسونه .

يحاول أبو الفضل بناءً على ما تقدم شحذ همم العرب واستنهاضها ، فيقول:

" قل للمسلمين حوطوا دينكم ، واتخذوا من كل سورة سورا ... فسدت دنياكم ، لإفساد دينكم ، وصونوا أنفسكم ، وأصلحوها ". وينعى أبو الفضل هذه الأحوال ويعزوها إلى البعد عن الدين ، وعن منهج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو القرآن الكريم ، إذ يرى أبو الفضل أنه

لا بد للعودة إلى مجد أبي ، يجب التمسك بالدين والعمل بأحكامه ، ولابد من جعل القرآن وسوره حصنا يحمي العرب ، وإلا ذلوا واستعبدوا من قبل الغربيين .

وفي المقالات من الثالثة عشرة إلى الرابعة والعشرين ، تحدث عن زعم الغرب وادعاءاته الكاذبة نحو إصلاح العرب، وتحريره من التخلف إلى الحضارة والتمدن ، ويذكر مثالاً على كذبهم . الثورة العربية الكبرى والحرب العالمية الأولى ، إذ طلبوا معونة العرب مقابل تحريرهم واستقلالهم ، لكنَّ كذبهم بان بعد أن استولوا على العرب، ووضعوه تحت حكم الانتداب ، كما تحدث عن جرائم المستعمر في أرض العرب، ومطامعه الحاقدة في الشرق ، يقول "رد الإنجليز والفرنسيون التي هي أحسن بالتي هي أقبح ".

وقد بدأ في المقالات التالية بعرض صور لهذا لاحتلال الغربي، وأطماعه في أرض العرب ، مثل : فلسطين، وأطماع اليهود فيها وفي أرضها ، وتغنى أبو الفضل فيما بعد من المقالات بمجد العرب وما يتحلون به من مكارم وأخلاق من عدل، وتسامح في الحكم فقد حكموا الأمم دون تعدٍ ،أو ظلم على لغتهم، أو دينهم .... يقول "إن مهاجرة اليهود إلى فلسطين جرح بليغ في كشك الأمة الغربية ، فهل يحمل نصراء اليهود تبعة جريمتهم بإبقائه داميا مفتوحا".

ثم يدعو العرب في المقال (الثامن والثلاثين إلى الرابع والأربعين)، إلى التحرر من الخضوع ، والتمرد على الغرب، واحتلالهم الغاشم ، ثم إعادة مجد العرب ، ويدعو في المقالات الأخيرة إلى قيام دوله العرب الإسلامية، ويضع لها مخططا ينم عن وعي عميق ورؤية واضحة ، ويدعو أيضاً إلى الاهتمام بالجيش وهو رمز لقوة الأمة وقوامها .

وهكذا تتابع صيحات النداء للعرب في المقالات التالية ، كما لمحناه في شعره تدوي صيحة الألم في نثره في كتاب الذي ضم فكره العربي للعرب والعروبة .

وهكذا نجد أن أبا الفضل قد تميز عن غيره من الشعراء الذين كتبوا في هذا المجال بأنه آمن أن العروبة لا تنفصل بأي حال من الأحوال عن الدين الإسلامي ، وقد برهن لنا ذلك بصورة جلية ، إذ أعلن إسلامه ، وهذا الإسلام نابع من اعتقاده وتصديقه ، للارتباط الوثيق بين العرب والإسلام .

من جانب آخر فقد رأى أبو الفضل في الغربي شقاء الشرقي ، إذ أنهم مخربون لا مصلحون بحسب ادعاءاتهم وأقاويلهم ، وأن سياسة الإيهام ورفع شعارات التحرر والتمدن ليست إلا تهويمات الثعلب الماكر الذي يستعد للانقضاض على فريسته .

وبالنتيجة فإن: **"الغربي والشرقي أعداء بالفطرة" واللقاء بينهما جدّ المستحيل ".**

الفصل الثالث

السمات الفنية في شعر أبي الفضل الوليد

السمات الفنية في شعر أبي الفضل الوليد

كان أكثر شعراء المهجر تغنياً بأمجاد العرب في الأندلس ، وحنيناً إليها وتمجيداً لمآثر العرب هو أبو فضل الوليد ، والذي يبدو من خلال قصائده المتعددة أكثر احتفاءً بهذه الناحية ، كيف لا يهتم ، وهو من أوائل الذين تجلّت الرؤية للعروبة في أذهانهم واضحة مشرقة [١]

كان أبو الفضل الوليد شاعراً مبدعاً جعل لنفسه أسلوبا اعتز به، ساعد في إبراز المعنى الذي كان يسعى إلى إيصاله إلى القارئ ، ونذكر من سمات هذا الأسلوب:

١. المطولات وطول النفس في قصائده : والمطولات من أهم ما يميز أسلوب أبي الفضل في شعره ، فأبو الفضل يقول الشعر كأنه متكلم لا يملّ الحديث ، ولا تعوقه القافية ، لذلك جاءت معظم قصائده طويلة ، وعلى هذا يُعد أبو الفضل من أبرز شعراء المطولات في المهجر والوطن العربي [٢]. ونرى أيضًا ملامح ملحميّة فيها الكثير من الروح والإشارات التاريخيّة كأسماء المدن والحكّام والأعلام ....[٣].

---

(1) وليد المشوح : الشاعر المضيع ،ص٣٥٢
(2) المشوح ،الشاعر المضيع ،ص٣٨٣
(3) شاعر الحمرا،جورج غريب،ص٢٧٦(٧)

ومن مظاهر المطولات في شعر أبي الفضل أن ديوانه: (نفخات الصور) يضم سبع عشرة قصيدة ، ومجموع أبياتها ألف وسبعمائة وعشرين بيتًا هي :- المشرقية(١١١)بيتا /المغربيّة(١٣٢)بيتا /المكية(١٠٦)بيتا/المقدسيّة (٩٧)بيتا/الأموية (١٠٧)بيتا/ البغدادية(١٢٠)بيتا / الأندلسية(١٣١)بيتا / الصحابية(٩٦)بيتا / الصبائية(٩٦)بيتا / العسكرية(٩٦)بيتا / الشامية(٩٩)بيتا / الدمشقية(٥٧)بيتا / الباريسية(٥٦)بيتا /الشهادية(١٦٦) / الجهادية(١٧٣)بيتا / العراقية(٦٣)بيتا / المصرية(٦٥)بيتا.

وكثير من القصائد التي تزفها دواوين أبي الفضل كقصيدته المعروفة بمعلقة ابن طعمة (١٠١) بيتا والمعلقة اللبنانية (١٥٠) بيتا .[1]

ويعود السبب في هذه المطولات إلى تعدد موضوعاتها التي كانت تُعرض لها القصيدة الواحدة ، فقد تحتوي القصيدة الواحدة على المحاور الثلاثة التي تحدثنا عنها آنفاً ، فالقصيدة الواحدة تجمع بين الحديث عن الافتخار في الماضي، والتألم على ضياع المجد العربي ، ودعوة الأبناء للثورة على الاستعمار، وترسم خطى الآباء والوعد بالعودة ، وعودة المجد العربي القديم.[2]

أما في القصائد الذاتية فلعلّ سبب طولها هو العاطفة الجياشة ، كلما اعتراها الشوق وأشعلها الألم . وخاصة غربته في المهجر، وحنينه إلى وطنه.

ففي قصيدته "المغربيّة" التي بلغ عدد أبياتها (١٣٢) بيتا يبدأ بالحديث عن العرب ، وأمجادهم ، وتحسر على هذه الأمجاد ، ويشير إلى أثر الغرب ممثلا بالروم في ما حلّ في أرض العرب ، ثم ينتقل ليوجه الحديث مباشرة إلى الغرب المستعمر فيصب عليهم ثورة غضبه،

---

(1) النطافي ،ص (٥٢٧-٥٢٨)

(2) النطافي، ص ٥٢٨ .

ويهددهم بأن الزمان دول بين الأمم ، ويعزي كل هذا الدمار والتراجع في مكانة الأمة العربية إلى البعد عن الإسلام ، ومن خلال غرض الشاعر لأسماء المدن العربية نلمح رغبته في تحقيق الوحدة ، والشعور الذي يتولد لديه بأن الوطن الغربي بلا استثناء يشكل وطنه فهو لا يقتصر في حديثه على لبنان بشكل خاص ، وفيها أيضا يدعو العرب ، والإسلام أن يتخذوا سلاح الدين ، والأدب لإعادة أمجاد العرب البائدة .

فنلمح من خلال هذا الإيجاز أن أبا الفضل قد استغل هذه الخاصيّة لتخدم أفكاره، وتؤيد نظرته، ومشاعره تجاه الغربي ، واستغلاله وتجاه الأرض المسلوبة ، وبالتالي فإنّ أبا الفضل يجعل من الشعر وسيلة لإيصال صوته ، ورفضه للوضع السياسي الذي ترضخ تحت سطوته الأمة الغربية الإسلامية .

وفي باب المطولات في ديوان أبي الفضل نجد قصيدته" الرؤيا النبوية" التي يعرض من خلالها دنيا العرب، وقد بلغ عدد أبياتها ما يقارب ٢٥٢ بيتا عرض خلالها أحوال العرب ، وعلاقته ببني الغرب ، ويستذكر العرب من عهد إسماعيل وإبراهيم ، ويمتدح عهد محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويبث خلالها آلامه ، وأوجاعه على العرب والعروبة .

ونخلص إلى أنّ أبا الفضل قد وظّف هذه الأساليب لخدمة رسالته القوميّة نحو العرب.

٢. الصدق في التعبير وخصوصاً في شعره القوميّ ، فقد كان شعره القومي صورة صادقة تُبرز ما يجول في خاطره من مشاعر الحزن والأسى، والغضب على هذا البلد المحتل . وأبو الفضل الوليد شاعر يتميز بأسلوب خاص: يمتاز بصدق العاطفة، وحرارة الإحساس. فقد جسد شعرُه أحزانَه، وجراحاتِه، وآهات وطنه . ونذكر من شعره ما يصور لنا إحساسه المتقد الصّادق ، يقول في قصيدته الطرب الأعلى ([1]):

([1]) الديوان ،ص١٧٣

تذكرت أيام الهوى فبكيتهـا　　وقلت لقلبي ويك لانقســـــــم .

فقال ألفت الحزن حتى التذذته　　فدعه لهذا الخافق المتألـــــــم .

أبـــي وأبت عيناي ألا تشفيها　　بسيـــل غدير من دموعي ومن دمـــي.

بالإضافة إلى صدق الإحساس ، فإن أبا الفضل كان يضع كلماته وعباراته ضمن تراكيب واضحة ، وقد تجنب الصياغات اللفظيّة، فلا يبهرجها ولا يجعلها غامضة، ولا مبهمة ، ولكن يؤدي لك المعنى بوضوح واستقامة ودقة ، فإنه مؤمن بأنّ الزخرفة في القول إضاعة للمعنى (١).

وهذه السمة تجعله واضحاً في ألفاظه و تراكيبه ، فالصدق في التعبير ــ وخصوصاً في شعره القومي ــ كانت له نكهة خاصة يحس المرء خلالها إيمانه المطلق بالعرب كأمة عظيمة ، لها تاريخها المجيد الذي يشهد به الأعداء المتربصون بها (٢).

٣. توظيفه لأساليب الاستفهام والتعجب النداء والأمر والنفي . لقد كانت لأبي الفضل طريقة خاصة في التعبير عن عواطفه ، وانفعالاته، وألفاظه ، وقوافيه ، فتارةً يعمد إلى أسلوب الأمر ، النهي ، النفي ، والاستفهام ، أو التمني لجلب انتباه السامع (٣) ، كقوله:-

يا أهــــل المشارق لا تناموا　　فــإن عدوكم في ألــف زي.

وكونوا أمة يوم التنـــــاوي　　علـــى أمم في الغرب اللغـــوي.

فختام الفضاضة والتقــاضي　　علـــى الأرزاء بالطرف القــذى.

ويا أبناء يعرب هل أصاخت　　ضمائركم لتأنيب النــــــــدى.

---

(١) النطافي، ص٣٠٤
(٢) أبو الفضل الوليد الشاعر المضيع ،وليد المشوح،ص٣٧٣
(٣) النطافي ، ص٣٠٦

فحول الكعبة العظمى نجوم تطالعكم من الليل الدجـــــــى.

أغيروا كلكم عرباً وغـــاروا علـــى الدين الحنيف الأحمدي (¹).

٤. الصورة الفنّية وجودة الرسم ، وإبراز عناصر الصورة التي تُفضي إلى إبراز المعنى بصورة أدق وأعمق ، بالاعتماد على عناصر الحركة والألوان . يمتاز أبو الفضل بامتلاكه القدرة الفائقة على رسم اللوحة الفنيّة وبعث الروح ، والحركة فيها بشيء من الواقعية المتسلسلة الجميلة.

وكذلك يمتلك الدقة الفنيّة في التعبير عما يجول في خاطره ، ويستدعي الصور البصرية، والسمعيّة والحركيّة والشمسيّة والذوقية استدعاء فنيّاً جميلاً (²).

ولكن رؤياي الجميلة أظلـــت فأعقبني حزناً زوال الحســــــــرة.

فوا حبذا جنات خلـــدٍ تحجبت وفي خلد منها تصاوير بهجـــــــةِ.

شمعة شذاها ثم سمت سناءها فشمـــي وشمـــي منــها حسن شيمتي.

٤. التكرار: وهو تكرار المعنى أو اللفظ . فقد لجأ أبو الفضل إلى تكرار المعنى خاصة في الشعر القومي ، إذ كرر أفكاره ومبادئه التحررية الداعية إلى التحرر من قيود الظلم، والاحتلال... والثأر لماضٍ عربي عريق. أما التكرار في اللفظ ، فقد لجأ الشاعر من خلاله إلى تكرار أمر ، أو كلمة ، أو ضمير ليؤكد على فكرة معينة تخدم هذه الكلمة ،أو الفكرة التي يريد إثباتها ...

(¹) الديوان ، ص٧٥-٧٦

(²) المشوح ،الشاعر المبضع ، ص٣٧٧

وليس التكرار ظاهرة غريبة على الشعر العربي قديمه وحديثه ، إذ نجدها ماثلة فيه، منذ أقدم النصوص الشعّرية ، وقلما يخلو منها شعر شاعر، فمن يطالع الشعر الجاهلي ، مثلاً، يجد أن لبّه قائم على التكرار ، من وقوف على الأطلال إلى رحلة المرأة ، وكذلك في أغراض الشعر المختلفة (1).

ونلاحظ أن أبا الفضل في قصائده - والمطولات خاصة - يكرر في المضامين التي تحمل حديثا عن الاستعمار والغرب علاقته بالشرق . .

وللتكرار وظائف عديدة في الإبداع العربي القديم ، أولاها محاكاة اللانهائي للكون، وتعميق الشعور بالمدى المطلق الذي نعيش فيه بوصفنا بعض عناصره المتكررة ، شأننا شأن مفردات الطبيعة التي تتكرر بها دورات الفصول ، وتعاقب الليل والنهار إلى آخر ما يدور في هذا الكون من تكرار.

بالإضافة إلى ما سبق ، يحمل التكرار مفارقة مغايرة، إذ يمكن أن يؤدي وظيفة أخرى إيجابيّة ، وهي وظيفة تأكيد الدلالة ، وإبراز المقصود بما لا يفلته من الذهن ، ويفرضه على الوعي. وهذا يحدث عندما نريد الإطالة في الوقوف على الدلالة ، وإبراز المقصود...

وكذلك يلجأ الشاعر إلى التكرار ليوظفه فنيّاً في النص الشعري المعاصر لدوافع نفسيّة وأخرى فنيّة. أما الدوافع النفسيّة ، فإنها ذات وظيفة مزدوجة تجمع الشاعر، والمتلقي على السواء(2) .

ومن يقرأ أدب أبي الفضل يجد أنه يكثر من التكرار في شعره ونثره ، فيكرر المعنى الواحد غير مرةٍ في أكثر من قصيدةٍ ، ولعل ذلك راجع إلى حرصه على تلك المعاني ورسوخها

---

(1) التكرار في شعر محمود درويش ، فهد عاشور ، ص٣١ .

(2) البنيات الأسلوبية ، مصطفى السعدني ، ص١٧٢

، فهو يركز على اليقظة والتحرر ، ويهاجم الاستعمار، ويتحسر على مجد الأمم والأعراب ، من ذلك ما يُلاحظ في قصيدته (البغدادية) من ألم شديد ؛ لأن العرب أسلموا أمورهم للغرب ، فيقول[1]:

ذهب الرشيد زوال رشـــــدك بعده   فاليوم لا رشد ولا أرشــــــاد
ذالك الجبار أصبح نسلـــــــــه   قزماً فضيع ملكه الأحفــــــــادِ
أودى بنو العباسي فوق أســــرةِ   قتلى عليهم شقت الإيســــراد
وعبيدهم متحكمون بدولـــــــــةِ   مع أهلها ذهب الندى والآبــــاد

ويكرر المعنى نفسه في قصيدته (الصحابيّة) فيقول ([2]):

أظلمت شعوب الخافقين خلافـــة   وللعربــــــــــيّ الملك حيث يشـــاءُ.
ولما تنادى عن حماهـا حماتها   تناولـــــها الظـــــمآن والدخــــــلاء.
وناهضها الأعداء من كل معشـرِ   وليـس لقـومي فـي الـوغى، زعـمـاء.
فيـــا ويل ولـــى الأجانب أمر   وقــوادهـــم حـوليـه والـــوزراء.
هـــو الملك لا يحميـــه إلا بناته   وهــــم أبـدا حــراسة للأمنـــاء.

كما يكرر أبو الفضل في الضمير كما في قصيدته بين الشرق والغرب ، فيقول ([3]) :-

أنا الكوكب اليسار في ليلة النـــوى   تنير سبيل التـائهين أشعـتـي.
أنا البلبل الصفار في روضة الهـوى   تطير قلوب العاشقين لصفرتـــي.

([1]) الديوان ، ص١٠٢ .
([2]) الديوان ، ص ١١٥ .
([3]) الديوان ، ص ١٦٣ .

أنا العنبر الفواح في كل مجلسٍ   تعطر أثواب الحرائر نفحتي.

أنا العاشق العفاف في كل خلوةٍ   تركت العذارى معجباتٍ بعفتي.

أنا المزهرُ الرنّات في كف مُطربٍ   ملائكة الجنّات تشتاقُ رنتي.

٥. العناية باللفظ والمعنى: لقد كانت قضية اللفظ المعنى منذ القدم محور خلاف ونقاش بين النقاد والشعراء ، وبين الشعراء أنفسهم . فاللفظ والمعنى من أهم العناصر التي ترعى النص الشعري ، وقد اشترط القدماء الجزالة في اللفظ والفخامة ، واشترطوا أيضاً جودة المعنى ورصانته.

ولا يكفي أن نلتمس عند الشاعر جودة انتقائه للفظة المفردة ، وإنما علينا أن نلمس في نظم الشاعر ما نسميه حسن الترويج بين الألفاظ التي يختارها ، فاختيار موقع اللفظ من التركيب أمر عظيم الأهمية كاختيار اللفظة نفسها ، إن لم يكن أعظم أهميّة (١). وعلى هذا يشترط أن تكون للشاعر خزانة أدبية زاخرة بالألفاظ ، تستطيع أن تلبي احتياجاته بيسر وسهولة، ويستطيع أن يتصرف فيها في الموضوعات كافة (٢).

ومن هنا كان للفظ قيمته ، وبخاصة في الشعر الذي هو صورة من اللحظات الفائقة في الحياة الشعورية ، والمقصود باللفظ هو التناسق بين طبيعة التجربة والألفاظ . فالشاعر يخرج بالألفاظ إلى مدلولات متعددة ومتنوعة ويستخدم الاستعارات ، والتشبيهات لإثراء هذه الألفاظ ، والصوتَ والكناية ليدل بذلك على الأحاسيس التي تجيش في نفوسهم (٣).

---

(١) الدراسة الأدبيّة، رئيف خوري، ص٢١-٢٢.

(٢) المصدر السابق ص٢٧.

(٣) محمد سلامة النطافي،ص٢٩٧.

وإن الشاعر لابدّ له ، حتى يبرع في استخدام الألفاظ، وتوظيفها ضمن التراكيب ، أن يطلع على صياغة سابقيه من الشعراء . وقد أقبل شاعرنا أبو الفضل على دراسة الدواوين الأدبيّة القديمة ، وأخـــــذ يُعدُّ شاعريته من عذب تلك الأشعار ، وبذلك جمع نتاجُه الشعري بين القديم والحديث (١) . ونلمح من خلال قصائد أبـــي الفضل الألفـــاظ القوية. ومثال ذلك قوله (٢):-

سل الطير هــل تبقـــى لـــها وكناتها ... سل الورق المنثور من كـل زهـرةِ

تجبك ليالـــي الطَيبـــات قصيـــرةٌ ... كأحلامها تمضي على حيـن غفـلةِ

ولكـــن ليـلات الشفاء طويلـــةٌ ... وفيهنّ تهوي نجمةٌ أثمر نجمـــةِ

أرى السعد همًا والشقاء حقيقـــة ... فما كان أشقانا بحكم الحقيقـــة

وتكمن قيمة اللفظ في ما توحي به من دلالات ورموز، يقول أبو الفضل (٣):-

وبين حنايا الصدر صـوت حبيبتي ... يرنُّ رنيناً كالهزار إذا صفـــرَ

لقد محت الأيام آثار حبنـــا ... فيا حبذا لو جمَّد الأزمن العِـــبرَ

لأنظمها عقداً يليق بجيدهـــا ... ولكنَّ ما في القلب أغلى' من الـدرر

أحبَّت من الأزهار البنفســـجِ ... لها عطرهُ واللون من عينيها استقر

وإني لأهواها وأهوى بنفسجـــاً ... ذوي بين ثدييها وفي مهجتي نضـرْ

(١) محمد سلامة النطافي،ص ٢٩٨.
(٢) الديوان،١٦٢.
(٣) الديوان،ص١٦٩.

وهو في تعبيره عن وطأته وصدقه الصوفي في هذا الحنين لا بد أن يكون صدقه منبعثًا من نقاء صحراوي ، على الرغم من أدوات الحضارة المحيطة به في مهجرة ([1]):-

سأبكي على مجد أجـــــــدادنـــا	فعـــنــد البكـــاء يخـف الألــم
وأذكرهم لأهيج الشعــــــــــور	فــإن الحـياة يــذكــر الرمـــم
سلام على العرب الخـــالديـــن	ســلام الــعـــلا وسلام الكـــرم
وإنـــــــي لأقرأ تاريخهـــم	وقــد كــتــبــوه بــحــبر ودم

إنه يجعل من البكاء ممارسة لذيذة ، ويخلق من التفريع لهيباً يشعل الأعصاب، ويدفع إلى الثورة الذاتية ، خصوصاً أنه يمتلك أدوات التحريض التي لها فعلها في النفس ([2]).

٧. ومن مميزات شعره كذلك ، أنه يخلو من التشابه المصطنع ، والاستمارات المتكلفة – فلا مجاز مقحم إلا بما يسوقه عليه المعنى لخدمته ، ولا صورة مبهرجة إلا بما يستدعيها الموضوع ، ولا استعادة لمجرد فلسفة الشعر، ولا كناية لتزويقه إلا إذا تطّلب المضمون الشعري ذلك .

أرى العرب قد صاروا شعوبا كثيرة	قسمـــة تشكو تباريح محمـــــــوم
وأني أسر ، أكثر بأنقاض دولـــة	وملك بأيدي الترك والروم مهدوم ([3]).

([1]) الشاعر المضيع، وليد المشوح ص٣٧٤.
([2]) المصدر السابق، ص٣٧٥.
([3]) الشاعر المضيع، وليد المشوح، ص٣٧٥.

فأسلوب الشاعـــر نتيجة طبيعية لمواهبه ، وصورة لشخصيته، وصدقه مستمـــد من نفسه ، ويجب أن يُؤلف بلغته، وعباراته ومن تقليد سواه من الأدباء ، لأن أسلوب الكاتب صورة خاصة بصاحبه ، وتبين طبيعة تفكير ذاك الشخص (١).

وخلال رسمه للوحات الشعرية نجده يناسب بين ألفاظه ، ومعانيه ، ويختار لكل غرض ما يناسبه في القوافي، والمفردات ، ومثال ذلك قصيدته العسكرية التي نسمع صليل الكلمات كأنه صليل السيوف ، ونسمع وقع القوافي، وكأنه وقع حوافر الخيل، وتتبعث الموسيقى من خطوات الجنود فيقول (٢):

فيالك جيشاً كان في الهند زحفـــه — وفي الصين واليابان منه غماغم

وقائعه في كل أرضٍ وأمـــــةٍ — على السّـلم أعيـاد له ومواســم

وفي كل أرض أهلها عرفوا الهــدى — حــــوافـــر أعـــرابية ومناسم

فـــكانت لها أختام ملكٍ ونعمـــــة — وهز الدنى تـصــالها و الحماحم

وقد طلعت رايتهم فتطلّعـــــــت — إلـــيها شعوب أثـــقـــلتـــها المغارم

فهو يستخدم التصوير الفني الحركي الجميل ، حيث تشوبه انفعالية عاطفية تبتعد في قمة حماسيتها عن الصوت الهادئ العاقل ، إذ يصور الحركة ويركز على المفردة الحية؛ لتضفي وضعًا خاصًا ومؤثرًا على القصيدة ، مما يجعل لها التأثير في النفس وكذلك يضفي الجاذبيّة على

---

(١) النطافي ،ص٢٠٣
(2) الديوان ،ص١٢٣-١٢٤

الكلمة النافرة إحياءً لضرورة الشعر، ثم يعيدها إلى حظيرة الواقعية المحببة([1]). ويقول في إحدى قصائده ([2]).

هـو الملك تبنيه الجيوش الخضـارم   ومنـــه علـــى الأعلام تبدو الملائم

فـــلا عـــز إلا مـــن خميس وراية   ولاحــق إلا ما حمـــته الصوارم

ولا دولة ترجن وتخشـى سوى الـتي   على الجيش ، والأسطول العائـــم....

الصورة الشعرية في شعر أبي الفضل

للشاعر في أدائه الشعري طريقتين في التعبير : الأولى وهي التعبير المباشر ، والثانية الصورة الشعرية ، أو التعبير المتخيل ، الذي نتيجة للتأثر الناتج عن لحظات الانفعال العقلي والعاطفي ، وقد يكون مصدر هذا الانفعال من داخل الإنسان ، أو من خلال الناس الذين يتعامل معهم ، أو من الطبيعة نتيجة للشعور، والإعجاب أو بالنفور مما أدركته حواسه الخمس ، وتبقى الكلمة هي الأساس الأول الذي تبنى عليه القاعـــدة الأساسية للصورة الشعرّية([3])

فالتعبير بالصورة هو لغة الشاعر التلقائية التي لا يتعلمها ولا يحتاج إلى اعتذار عنها

---

(1) المشوح ،ص٣٧٩

(2) الديوان ، ص١٢٢

(3) الصورة الشعرية عند فدوى طوقان ، خالد السنداوي ، ص٣٧ .

فالصورة الفنية تصور المعطيات الحسية وتتعداها إلى تصوير انفعالاته ومشاعره الداخلية ، وتكمن أهمية الصورة في بعدها عن الأداء المباشر، وتقديم الفكرة من خلال إيحاء وتركيز بهدف التأثير .

وكذلك فإن الصورة لا تختلف بذاتها ، إنما تكون جزءًا من التجربة وهي مرتبطة بسائر مكونات القصيدة ، لذلك يجب دراستها مفردة، وعلاقاتها بالبناء الشعري الشامل للقصيدة المكونة من صورة أخرى ، وهذا يساعد على اكتشاف العنصر الحيوي الفائض في القصيدة([1]).

وللشرح والتوضيح يستخدم الشاعر الصورة التي تؤدي هذه الوظيفة، وهي الصورة التشبيهية ، ولعل هذا يرجع إلى أن التشبيه بطبيعة الثنائية الحادة تستطيع الجمع بين الفكرة ومقابلها الشارح ، أو الموضح على نحو لا تستطيعه الاستعارة التي تلغي الحدود العملية بين الأشياء وتخلط بينها ، لهذا يعتمد الشاعر على التشبيه أكثر من الاستعارة ، لأنه يريد أن يبقى التمايز بين الأشياء هربا من الغموض والإبهام اللَّذَيْن هما خاصية أثيرة في الاستعارة ، خصوصاً أن هذا الشاعر كان يريد أن يشرح فكرة لجماهير غفيرة، ليس من الضروري أن تكون مستعدة للاستغراق في التأمل، أو التأني في الفهم([2]).

والصورة الفنيّة في هذا الجانب من العالم الخالي من جفاف الواقع ، وصلابته وهموم الأرض ومشكلاته ؛ لأنه يستمد من بنائه الداخلي من غير أن يستمد دلالته السطحية، أو المباشرة ، فالشاعر يمزج بين الواقع والمحتمل ، بل يضخم الواقع على حساب المحتمل

([1]) السابق نفسه .

([2]) استعادة الماضي ، جابر عصفور ، ٣٣٦ .

وأصبحت وسيلته الوحيدة للتعبير هي نقل هذا المحتمل بالكلمات، في صورة فنيّة ما دام المنطق والفكر قد عجز عن إثبات هذا الشيء المحسوس([1]).

يقف مفهوم الصورة الفنية في الفكر القديم عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز، وفي العصر الحديث تحول مفهوم الصورة إلى نوعين آخرين هما : الصورة الذهنيّة والصورة باعتبارها رمزاً ([2]) . فقد وصف العربي كل ما مرَّ في حياته ، وصف ناقته ، ووصف الأطلال، ووصف النجوم ، ووصف المرأة ، وكل مظاهر الطبيعة التي مرّ بها ووصف الصحراء ومظاهرها .و ما بها من حركات وألوان ، وامتزاج بينها وبين الصوت الخ . وللصورة اللغوية الشعرية في الكلاسيكية وظيفة لا تفارق دوائر الوصف والمحاكاة ، والمحاكاة تنطوي على معنيين:

الأول : محاكاة للطبيعة، وتشمل الطبيعة على الإنسان ، وتصويرها تصوير صادقاً .

ثانيـــــاً : محاكاة القدماء بوصفهم طبيعة ثانية مضافة إلى الطبيعة الأولى([3]).

يا برق طالع مصوراً أهلها رحلوا وحـــــيَّ أجداث أبطـــال منيـــخينــا

أهكذا كانت الحمراءُ موحشـــــةً إذ كنت ترمق أفواج المغننيـــنـــــا ؟

ولعل أبا الفضل من أبرز الشعراء الذين برعوا في رسم الصورة الفنيّة في شعره ،فمن ذلك يقول في قصيدته الأندلسية([4]).

([1]) الصورة الشعرية عند فدوى طوقان ، خالد السنداوي ، ص ٣٧
([2]) الصورة الفنية في الشعر العربي ، على البطل ، ص ١٥٠ .
([3]) استعادة الماضي ، جابر عصفور ، ٣٧٧ .
([4]) الديوان ، ص ١٠٩ .

وللبرود حفيفُ فوق مـــرمــرها   وقد تضوع منها مسكُ دارينـــــــــا

ويا غمام افتقد جنات مِرسيــــــةٍ   وروِّ من زهرها ورداً ونسرينـــــــاً

وأمطر النخل والزيتون غــاديـــةً   والتوت والكرم والــرمان والتـــينـــا

فقد نقل الشاعر أحاسيسه وأفكاره للشمس ، والموج والقمر، وأسقط عليها آهاته وأحزانه ، واستخدم أسلوب التجسيد أو (الأنسنة) ـ إن جاز لنا القول ـ وهو بمعنى إسقاط صفات الإنسان على الجماد كالنطق، والتحدث والبكاء .... وغيرها .

التناقض

إن حياة أبي الفضل القلقة التي لم تعرف الهدوء والاستقرار، تركت على أدبه أثر التناقض في كثير من المواقف والآراء ، وجعلت ذاك الشاب الجريء القوي يردد شعارات الألم والبأس (١)

وأكثر ما ظهر تناقضه في موقفه من المرأة وفي حبِّه، وغزله وفي بعض القضايا الأخرى التي تتعلق بالمجتمع والعادات ، فهو العفيف الطاهر الذي لم تطأ أرضاً مدنسة رجله كما يقول (٢)

حملت الهوى العذري أصفى من التــقى   تظـــهره الشمس المنيرة من عــقلي

(1) النطافي ، ص ٥٣٩ .
(2) الديوان ، ص ١٨٥ .

فمـــا لمـــس كفـــي ثـيـــاب مهانـــــة   ولا وطئت أرضاً مدنسة رجلـــــــي

وهو الذي يسهر مع حبيبته والطهر لم يفارقهما لحظةً ([1]) :

أغـــازلهـــا والـــطهـــر سهران بيننـــا   كـــأنا اتخذنا في الحـــديقة معـــيـــداً

وهو العاشق العفيف الذي لا يطمع من محبوبته بغير النظرة الطّاهرة الشريفة .

أنا العاشق العفاف في كـــل خلـــوةٍ   تـــركـــت العذارى معجباتٍ بعـــفـــتي

وفي وقت آخر فهو نهم لا يشبع قلبه من الهوى ولا تملّ عينه من النظر([2])

فيا لك قلباً لا يـــمـــل مـــن الهـــوى   ويا لك عـــيـــنـــاً لا تمل مـــن النظـــر

وهو في مقام آخر لا يرضى إلا بالتقبيل، والضم والتمتع بما عند المرأة من أطيب كنوز ثمينة فيقول ([3]) :

وتولينني التقبيـــل والضـــم خلســـــةً   ونعمـــنـــنـــي في شقـــوتي بالأطايـــب

ومتعن كفي من كنـــــــــوز ثمينة   تكـــون ســـلاحاً في الرّزايا الغـــوالب

وفي موضع آخر نجد أبا الفضل يدعو إلى الاقتداء، والتمسك بالحجاب لأنه من مظاهر التمسك بالدين ، فيقول([4]) :

عـــلى خديكِ أرضى لي خماراً   فلولا الليل ما اشتقت النهـــارا

خمارا فيـــه ترويح لقلبـــــــي   إذا النسمات هبت فاستطـــــارا

فما أحلى النّقاب على المحـــيـــا   إذا احتفظ الخفارةَ والوقـــــارا

توارى الحسن فيه لا احـــتراس   كـــذالك الدُّر في صـــدفٍ تـــوارى

(1) الديوان ، ص ١٦٢ .
(2) الديوان ، ص ١٦٩ .
(3) الديوان ، ص ١٩٢ .
(4) الديوان ، ص ١١٩ .

فنقابل دون وجهـــــك ليس إلا　　　رجاء خلفه وطــر يـــــــــدارى

وفي حين آخر ينفرّ من الحجاب ، ويرى أنّه قيد ثقيل يحرم المرأة من حريتها، فيقول (1) :

لعمرك ليس الطهر في برقعٍ وفي　　　حــجــاب بــأســيــاف محاط وأسهم

ولكنــه في كل نفس شــريفـــة　　　لـها لطف عصفــــورٍ وهيبة ضيغم

إلهك لم يختلق جمـــالاً محجـبــاً　　　وحــواء في الجـنــات لــم تتلثـــم

فنفسه اضطربت بسبب عدم تحقيق طموحه ، واضطراب نفسه التي لم تحقق ما كان يحلم به (2) .

---

(1) الديوان ، ص ١٧٤ .
(2) النطافي ، ص ٥٤٢ .

الخاتمة

في نهاية هذا البحث يتضح أن أبا الفضل الوليد شاعر قد عاش إرهاصات الاستعمار، وتألم لحال العرب والعروبة في ظلّ الخضوع العربي ، وقد تعالت صيحات ألمه في شعره الذي يعدّ وثيقة تاريخية تحمل أسفار المجد العربي القديم .

ولا بد من عرض الظروف السياسية التي كانت بلاده تقبع تحتها ، والتي توصلت في النهاية إلى إيجاد موقفه من الغرب وتصويره في قصائده معظمها .

لقد عرض أبو الفضل صورا تحمل أحاسيس صادقة تجاه العرب، والدين الإسلامي بخاصة ، وقد زخرت هذه الصور بعناصر حركية ،وألوان تجسد لنا الإحساس العارم والقومية الحقة .

ومن منظور آخر ، فقد تعرفنا إلى تلك الشاعرية الفذّة ، التي غمرت في زحام العمر ، وما تميزت به من أساليب فنية متعددة ، وبلاغة في التعبير، ورسم للصور الغنية بالأحاسيس مما أنتج لنا في النهاية نتاج شعري، يستحق أن تكون له هذه الوقفة وهذا الجهد . آملا أن أكون قد وفقت ، والله من وراء القصد .

المصادر والمراجع

- أسد ، ناصر الدين / عباس إحسان – تاريخ حركة العرب القومية – بيروت – دار العلم للملايين ، ١٩٧٤ .
- أبو عمشه ، عادل – الاتجاه السياسي في شعر إيليا أبو ماضي – ط ١ ، ١٩٨٧ .
- أندراوس ، فؤاد – بونابرت في مصر – القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .
- أبو الفضل الوليد – الصحائف . ريودي جانيرو ، البرازيل ، ١٩٢١ .
- إبراهيم ، حافظ – الديوان – أحمد أمين ، بيروت ، محمد أمين ، ١٩٦٩.
- بلبع عبد الحكيم – حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠ .
- ببلاوي ، حازم – نحن والغرب عصر المواجهة أم التلاقي – عمان ، دار الشروق ، ١٩٩٩ .
- حسن ، فاضل – تاريخ العراق المعاصر – بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٠ .
- حجا ، فريد- العروبة في شعر المهجر- بيروت – مكتبة رأس بيروت ،١٩٦٥ .
- خازن ، وليم – الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية – بيروت – ط٣ – دار العلم للملايين – ١٩٩٢
- خصاونه، سامي – العرب والغرب صورة متقابلة.
- الخطيب ، محمد كامل – الشرق والغرب – دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٩١ .
- داوود ، أنس – التجديد في شعر المهجر – دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٧ .
- دقاق ، عمر – عنادل مهاجرة – دمشق – اتحاد الكتاب العرب -١٩٧٢ .
- ديب ، وديع أمين – الشعر العربي في المهجر الأمريكي – دار الريحاني – ١٩٥٥ .
- ربيعو ، تركي / ميلاد زكي – الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل - بيروت ، دار الفكر المعاصر ، ١٩٩٨ .
- زعبي ، زياد – الغرب والشرق واللقاء المستحيل – دار المناهج – عمان ، ١٩٩٦ .
- السعفي ، كلثوم – نحن والغرب – تونس : مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، ١٩٩٢.
- سعيد، ادوارد :

– تعقيبات على الاستشراق – دار الفارس للنشر والتوزيع –١٩٩٦.

– الاستشراق : المعرفة – السلطة – الإنشاء ، مؤسسة الأبحاث العربية

- سكاف ، أسعد – مارون عبود ناقدا – بيروت - دار الثقافة – ١٩٦٦ .
- شوقي ، أحمد ، الشوقيات – بيروت المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٧٠ .

– شاخت، جوزيف أبوزورث كليفورد – تراث الإسلام – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت–١٩٩٨

- صيدح ، جوررج – ديوان أبو الفضل الوليد – بيروت – لبنان – دار الثقافة – ١٩٧٢ .
- الضاوي ، أحمد - دراسة في أدب فارس الشدياق وصورة الغرب فيها – عمان- الأردن – مطابع الدستور التجارية - ط ١ ، ١٩٩٤ .
- طوقان ، خالد – الصورة الشعرية عند فدوى طوقان – دار المشرق ، ١٩٩٣ .
- طوقان ، إبراهيم – الديوان – عمان ، مكتبة المحتسب ، ١٩٨٤ .
- عباس ، إحسان / نجم محمد – الشعر العربي في المهجر الشمال – بيروت ،دار صادر ، ١٩٥٧ .
- عبد البديع ، نظمي بين أصالة الشرق وفكر الغرب – القاهرة – دار الفكر العربي ، ١٩٧٦.
- عبود ، مارون -جدد وقدماء – بيروت – دار مارون عبود – ١٩٧٢ .
- عصفور ، جابر، استعادة الماضي- الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١ .
- علي ،مصطفى – ديوان معروف الرصافي ، بغداد دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٦ .
- غريب ، جورج – أبو الفضل شاعر الحمرا – دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

– الفيومي، محمد – الاستشراق – دار الفكر العربي – ١٩٩٣.
- قطامي ، سمير – اليأس فرحات شاعر العروبة – القاهرة دار المعارف ، ١٩٧١ .
- مريدن ، عزيزة – الشعر القومي في الهجر الجنوبي - - عمان – الأردن – دار الفكر ١٩٧٣
- مشوح ، وليد – الشاعر المضيع – دمشق – د .ت.
- مطلوب، أحمد – القروي شاعر العروبة في المهجر - عمان – الأردن – دار الفكر ، ١٩٨٥
- مقدسي ، أنيس خوري – الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث – بيروت – جامعة بيروت الأمريكية – ١٩٥٥ .

- ملثم ، البدوي – الناطقون بالضاد في أمريكا الجنوبية - بيروت – دار الريحاني - ١٩٥٦

– الموسوي، محسن – الاستشراق في الفكر العربي – دار الفارس للنشر والتوزيع – ١٩٩٣.

– الميداني ، عبدالرحمن – أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التبشير – الاستشراق – الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري . دار القلم – دمشق .

- الناعوري ، عيسى – أدب المهجر – القاهرة دار المعارف – ١٩٧٧ .
- نطافي ، محمد سلامه ذيب – أبو الفضل الوليد حياته وأدبه – ١٩٧٨ .
- هواري ، صلاح الدين – ديوان إيليا أبو ماضي – دار مكتبة الهلال ، ٢٠٠٦ .